فاتحة العلوم

الغزالي



كتاب



تأليف الامام الحجة أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي
المتوفي سنة ٥٠٥ قدس الله روحه ونور ضريحه

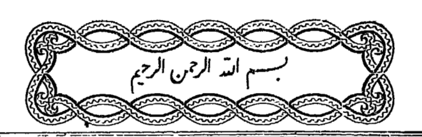
ويليه

(خلاصة المفهوم في تخريج أحاديث فاتحة العلوم)
جمع الفقير اليه تعالى محمد أمين الخانجي



الطبعة الأولى
بمعرفة السادات أحمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه
سنة ١٣٢٢ هجريه

طبع بالمطبعة الحسينية المصريه
بجوار مسجد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه
ادارة محمد افندى عبد اللطيف الخطيب



الحمد لله الذى بذكره يفتتح كل كتاب • والصلاة والسلام على رسوله الذى بالصلاة عليه يختتم كل خطاب • وعلى آله وأصحابه الذين بأنوارهم يجلى عن وجه الحق كل سحاب • وينكشف كل حجاب (أما بعد) فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلقوا بأخلاق الله تعالى * فالتأدب بآداب الله من أعلا مقامات المقربين وقد صدر الله كتابه العزيز بسورة وسماها فاتحة الكتاب فأحببنا الاقتداء به وصدرنا العلوم بكتاب سميناه (فاتحة العلوم) نذكر فيه شرائط العلم وفضائله ولوازمه ولواحقه وآفاته وغوائله وآدابه وفرائضه وسيرة علماء السلف وعلامات علماء الدنيا وعلماء الآخرة وينكشف ذلك في سبعة أبواب (الباب الاول) في فضيلة العلم (الباب الثانى) في تصحيح النية في طلب العلم (الباب الثالث) في العلامات الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة (الباب الرابع) في العلوم المهمة وأقسامها (الباب الخامس) في شروط المناظرة وآفاتها (الباب السادس) في آداب المعلم والمتعلم (الباب السابع) فيما يحل أخذه من أموال السلاطين للعلماء

﴿الباب الاول فى فضيلة العلم ومذمة علماء السوء وفيه خمسة فصول﴾

﴿الفصل الاول في فضيلة العلم﴾

قال الله تعالى *(شهد الله أنه لااله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط)* الآية نصب سبحانه كلمة التوحيد مقصدا للاثبات ثم استشهد عليها بذاته وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم من عباده وناهيك به شرفا وفضلا وجلالة ونبلا فان نظرنا الى المشهود به فهو كلمة التوحيد وهى أعلا الكلمات ورأس السعادات وأساس العبادات وان نظرنا الى المستشهد فهو الله سبحانه وتعالى وان نظرنا الى رفقائهم في الشهادة فهو الله تعالى وملائكته ثم ان الله تعالى زاد عليه فرفع الواسطة من الوسط وبين ان الاكتفاء حاصل بمجرد الشهادتين بشهادة الله تعالى وشهادة أهل العلم فقال *(قل كفى

بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)* ثم خصص أهل العلم بالهداية المطلقة فقال في قصة قارون *(وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير)* وأصل الهداية والمعرفة الاطلاع على ان زخارف الدنيا وزينتها متاع الغرور وان الآخرة هي دار القرار وهذه المعرفة يختص بها أهل العلم لان هذه المعرفة تستفاد من الآيات الدالة عليها والآيات انما تتبين عند أهل العلم قال الله تعالى *(بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)* ثم خصصهم سبحانه وتعالى باماطة ظلمات الجهل عن قلوب الخلق كافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى *(ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم)* ثم خصصهم الله سبحانه وتعالى بالخشية التي هي رأس الحكمة فقال تعالى *(انما يخشى الله من عباده العلماء)* ولاجل هذه الخواص أوجب الله تعالى لهم المحبة فأوحى الى ابراهيم عليه السلام يا ابراهيم اني عليم أحب كل عليم خصصهم بالمحبة ونبه على سببه وهو الموافقة في الصفة وهو من أدل الامور على علو الرتبة ثم خصص رسول الله صلى الله عليه وسلم البركة بالعلم (فقال) اذا أتى على يوم لا ازداد فيه علماً يقربني الى الله زلفى فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم (وقال أيضاً) يستغفر للعالم ما في السموات والارض* فما حال قوم هم مشغولون بأنفسهم والملائكة مشغولون بالاستغفار لهم ثم فضل العلماء على العباد (فقال) فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي (وقال) يشفع يوم القيامة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء *فاعظم برتبة هي تلو النبوة وفوق الشهادة

﴿ الفصل الثاني في فضيلة طلب العلم ﴾

اعلم ان العالم غير مختص بالرتبة والفضيلة بل طالب العلم وهو يعد في طلب العلم وان لم يظفر به له من الرتبة والفضل العظيم ما يعظم قدره (فقد روى) عن كثير بن قيس انه قال أتيت أبا الدرداء وهو جالس في مسجد دمشق فقلت يا أبا الدرداء اني جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب حديث بلغني عنك انك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما جاءت بك حاجة ولا جاءت بك تجارة ولا جاء بك الا هذا الحديث قال قلت نعم قال فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يصنع وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى الحيتان في جوف الماء وان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً

وانما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر (وقد قال) صلى الله عليه وسلم* ماعبد الله بشيء أفضل من فقه في دين ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء عماد وعماد الدين الفقه (وقال) صلى الله عليه وسلم لان تغدو فتتعلم بابا من العلم خير لك من صلاة مائة ركعة *وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه انه قال قال صلى الله عليه وسلم حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ومن عيادة ألف مريض ومن شهود ألف جنازة فقيل ومن قراءة القرآن فقال وهل ينفع القرآن الا بالعلم

﴿ الفصل الثالث في فضيلة الارشاد والتعليم ﴾

قد رفع الله سبحانه وتعالى درجة العلماء المعلمين الداعين الى الله سبحانه وتعالى والى طريقه فقال في معرض الاستنطاق والتقرير (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين) وقال لرسوله *(أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)* وامتن على عباده بان بعث فيهم معلما فقال *(هو الذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)* ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذا الى اليمن (فقال له) لأن يهدى الله تعالى بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها (وقال صلى الله عليه وسلم) يقال يوم القيامة للعابدين والمجاهدين ادخلوا الجنة فيقول العلماء بفضل علمنا تعبدوا وجاهدوا فيقول الله تعالى لهم أنتم عندى كبعض ملائكتى اشفعوا تشفعوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة (وقال) صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى وملائكته وأهل السموات والارض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير (وخرج) صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله تعالى ويرغبون اليه والثانى يعلمون الناس (فقال) صلى الله عليه وسلم أما هؤلاء فيسئلون الله تعالى فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما هؤلاء فانهم يعلمون الناس وانما بعثت معلما وعدل اليهم وجلس معهم* ولقد خصص الله تعالى العالم العامل المرشد باعظم الالقاب على أشرف الابواب *قال عيسى عليه السلام من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء وهذه نهاية الاجلال والتعظيم (وقال) صلى الله عليه وسلم من حفظ على أمتى أربعين حديثا فيما ينفعهم من أمر دينهم بعثه الله يوم القيامة من العلماء وفضل العالم على العابد سبعون درجة الله أعلم مابين كل درجتين* هذا كله في اثبات فضيلة العلم والتعليم من حيث النقل ولنذكر شواهده العقلية

﴿ الفصل الرابع في بيان شرف العلم والتعليم من حيث الشواهد العقلية ﴾

فنقول كيف يخفى فضل العلم وشرفه على العاقل والفضل عبارة عن الزيادة والزيادة

تتوجه الى الكمال والكمال هو الغاية المطلوبة بالزيادة والفضل والعلم كمال على
الاطلاق لابالاضافة فان الشيء قد يكون كمالا بالاضافة كشدة العدو للفرس فانه
كمال للفرس بالاضافة الى الحمار وقوة الجمل فانها كمال له بالاضافة الى الحمار والسواد
قد يكون كمالا بالاضافة الى الشعر مثلا وهو نقصان بالاضافة الى الوجه والعلم
كمال مطلقا لابالاضافة فانه صفة الله تعالى الذى تمدح بها وصفة الملائكة وبها
قرب الملائكة من الله تعالى وقرب العبد منه وكمال الآدمي في قربه من الله تعالى
وقربه بالصفات لابالمكان وانما يقرب بصفة العلم فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من
الله أقرب وبملائكته أشبه حتى ان شدة العدوكمال في حق الفرس لافي حق الآدمى
من حيث انه آدمى والعلم كمال في حق الآدمي والبهائم جميعا بحسب مايليق به حتى
ان الكيس من الفرس خير من البليد وحتى ان أغبياء المغول والعرب يوقرون بالطبع
مشايخهم لاستشعارهم مزية عليهم بسبب زيادة التجربة بل تكاد البهيمة تشعر بكمال
العلم فان أعظم الحيوانات شكلا وقوة اذا رأى الآدمى يهابه ويحاذره لشعورها بتميز
الآدمى وبكمال مجاوز لدرجتها — وأما فضيلة التعلم والتعليم — فتبين من فضيلة العلم فان العلم
اذا كان أفضل الامور كان تعلمه طلبا للأفضل وتعليمه افادة للأفضل وبيانه ان مقاصد
الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين الا بنظام الدنيا فان الدنيا مزرعة
الآخرة وهي الآلة الموصلة الى الله تعالى لمن اتخذها آلة وممرا ولم يتخذها وطنا
ومستقرا وليس ينتظم أمر الدنيا الا باعمال الآدميين وأعمالهم وصناعاتهم تحصر في
ثلاثة أقسام (أحدها) أصول لاقوام للعالم دونها وهى أربعة الزراعة وهى للمطعم
والحياكة وهى للملبس والبناء وهى للمسكن والسياسة وهى للتأليف والاجتماع
والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها (القسم الثانى) ماهى مهيأة لكل واحدة من
هذه الصناعات وخادمة لها كالحدادة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات باعداد
آلاتها وكالحلاجة والغزل فانها تخدم الحياكة باعداد محلها (القسم الثالث) ماهى
مزينة للاصول ومرتبة لها كالطحن والخبز للزراعة وكالقصارة والخياطة للحياكة
وذلك بالاضافة الى قوام العالم الارضى مثل أجزاء الشخص الآدمى بالاضافة اليه
فانها ثلاثة أضرب (أماأصول) كالقلب والكبد والدماغ فهى الاعضاء الرئيسة (وأما
خادمة لها) كالمعدة والعروق والشرايين والاعصاب والأوردة (وأما مكملة ومزينة)
كالاظفار والاصابع والحاجبين وأشرف هذه الصناعات أصولها الاربعة وأشرف
الاربعة السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال مالا

يستدعيه غيرها ولذلك من يتكفل بها يستخدم سائر الصناع ويحتكم عليهم وأعنى بالسياسة استصلاح الخلق بارشادهم الى الطريق المستقيم المنجى في الدنيا والآخرة وهى على أربع مراتب (الاولى) وهى العليا سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا في ظاهرهم وباطنهم (الثانية) سياسة الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعا لكن على ظاهرهم لاعلى باطنهم (والثالثة) سياسة العلماء بالله وبدينه الذين هم ورثة الانبياء وحكمهم على باطن الخاصة فقط ولا يرتفع فهم العامة الى الاستفادة منهم ولا تنتهى قوتهم الى التصرف في ظاهرهم بالالزام والمنع (والرابعة) الوعاظ وحكمهم على بواطن العامة فقط * وأشرف هذه المقامات بعد النبوة افادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الاخلاق المذمومة المهلكة وارشادهم الى الاخلاق المحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم وانما قلنا ان هذه أشرف من سائر الصناعات لان شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور (أما بالالتفات) الى الغريزة التى بها يتوصل الى معرفتها كفضل العلوم الطبيعية العقلية على اللغوية اذ يدرك أحدهما بالعقل والآخر بالسمع والعقل أشرف من السمع (وأما بالنظر الى عموم النفع) كفضل الزراعة على الصياغة وأما بملاحظة المحل الذى فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة اذ تصرف أحدهما في الذهب وهو أعز الجواهر وتصرف الآخر في جلد الميتة وهو أخسها وليس يخفى ان العلوم الدينية أعنى فقه طريق الآخرة انما تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل أشرف صفات الانسان اذ به يقبل أمانة الله تعالى وبه يصل الى جوار الله تعالى وأما عموم النفع فلا يخفى فانه يعم الآخرة والدنيا أما في الآخرة فثمرته السعادة الابدية والقرب من حضرة الربوبية وأما في الدنيا فالعزة والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع فالعالم العامل المعرض عن الدنيا وأهلها ملك في الدنيا والآخرة لانه يتحكم على ملوك الدنيا (فاذا) علم الله سبحانه وتعالى صدقه في علمه واخلاصه في نيته باقباله على الله تعالى واعراضه عن الخلق ألقى محبته في قلوب الملوك وسخرهم له حتى يخدموه وهو يترفع عن استخدامهم وانما العلم المشرف المعظم هو الذى يعرفه حقارة الدنيا وأهلها فيدعوه من الدنيا الى الآخرة ومن غير الله الى الله ومن الحرص الى القناعة ومن الكبر الى التواضع ومن استحقار الفقراء الى استحقار الاغنياء ومن خدمة الدنيا الى استخدامها وهذا علم لايوجد في كتاب الظهار واللعان ولا في كتاب الحوالة والضمان ولا في جميع أرباع الفقه التى شغف أهل الزمان بها وقصر اسم العلم عليها (فاطلبوا) هذا العلم ان كنتم تطلبون مملكة

الدنيا والآخرة فهذا من حيث النظر الى عموم نفع العلم (وأما من حيث النظر الى المحل الذى فيه التصرف) فاشرف موجود على وجه الارض الآدمى وأشرف أجزائه قلبه الذى هو مطية الايمان والمعرفة والعقل والمعلم المشتغل بالعلم مشتغل بتكميله وتحليته وتطهيره وسياقته الى القرب من الله تعالى فتعليم العلم من وجه عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة لله تعالى وهى أجل خلافة لان الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذى هو أخص صفاته فهو كالخازن لأنفس خزائنه ثم هو مأذون في الانفاق على كل محتاج اليه فأية رتبة أجل من كون العبد واسطة بين الله تعالى وبين خلقه في تقريبهم من الله تعالى زلفى وسياقتهم الى جنة المأوى

﴿ الفصل الخامس في مذمة علماء السوء وسوء حالهم عند الله تعالى ﴾

اعلم ان العلم لما عظم شرفه وجلت رتبته عظم أيضا خطره واشتدت آفته فخطر كل شئ على قدر درجته فخطر الخياط في ان تنغرز ابرته في أنملته وخطر السلطان في انهدام مملكته بل في روحه ومهجته وكذلك فاعلم ان العالم الذى هو أسعد السعداء هو على خطر ان يلتحق بأشقى الاشقياء وذلك هو العالم الذى لا يعمل بعلمه ويرشدك الى هذا قصة بلعام بن باعورا فقد كان من كمال العلم في درجة وصفه الله تعالى في كتابه بانه آتاه آياته فقال *(واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا)* ثم لما لم يعمل بعلمه ومقتضى الآيات التى أوتيها وصفه الله تعالى بالانسلاخ منها واتباع الشيطان والغواية وشبهه بالكلب وهو أخس الحيوانات وأنجسها فقال *(فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)* ثم قال *(ولو شئنا لرفعناه بها ولكن أخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)* أى سواء آتيناه الحكمة أولم نؤته فهو يلهث ويحرص على الدنيا ولم يذكر في علة غوايته الا انه أخلد الى الارض واتبع هواه يعنى ركن الى الدنيا واطمأن اليها وكان غرضه قضاء الشهوة واتباع الهوى وشبه العالم الذى لا يعمل بعلمه بالحمار وهو أشد الحيوانات حمقا وبلادة فقال *(مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها)* أى لم يعملوا بها *(كمثل الحمار يحمل أسفارا)* ووصف الله تعالى بالعمى والضلال والختم على القلب من كان ضلاله واتباعه الهوى مع العلم فقال *(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون)* وقد صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم (فقال) ان أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه (وقال) من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله الا بعدا* وذكر تفاصيل عذابهم (فقال) يؤتى بالعالم فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور

بها كما يدور الحمار بالرحى فيطوف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه (وقال) صلى الله عليه وسلم مررت ليلة أسرى بى بقوم كانت تقرض شفاههم بمقاريض من النار كلما قرضت وفت فقلت ياجبريل من هؤلاء فقال خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ويقرؤن كتاب الله ولا يعملون به * ولاجل هذا عظم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم وشرهم وبين أن هلاك هذه الامة يكون على أيديهم (فقال) هلاك أمتى رجلان عالم فاجر وعابد جاهل وخير الخيار خيار العلماء وشر الاشرار شرار العلماء (وقال) صلى الله عليه وسلم انا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل ومن ذلك يارسول الله فقال أئمة مضلون * وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أخوف ما أخاف عليكم بعدى منافق عالم اللسان جاهل القلب (وقال) صلى الله عليه وسلم اللهم انى أعوذ بك من علم لاينفع وقلب لايخشع ونفس لاتشبع ومن دعاء لا يسمع اللهم انى أعوذ بك من هؤلاء الأربع * وقال عمر رضى الله عنه ان أخوف ما أخاف على هذه الامة منافق عليم قيل وكيف يكون منافقا عليما قال عليم اللسان منافق القلب والعمل * وأوحى الله تعالى الى داود ياداود ان أدنى ما أفعل بالعالم اذا آثر شهوته على محبتى ان أحرمه لذيذ مناجاتى ياداود لاتسأل عنى عالما أسكرته الدنيا أولئك قطاع الطرق على عبادى ياداود اذا رأيت لى طالبا فكن له خادما ياداود من رد الىّ هاربا كتبته حميدا ومن كتبته حميدا لم أعذبه أبدا * وقال عيسى عليه السلام مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر لاهى تشرب ولا هى تترك الماء يخلص الى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى

﴿ الباب الثانى فى تصحيح النية فى طلب العلم ﴾

وهو أول واجب على المتعلم والمعلم فان تحصيل العلم عبادة بل هو أفضل العبادات وأصل العبادات كلها النية (قال) صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ماهاجر اليه (وقال) صلى الله عليه وسلم من غزا وهو يطلب عقالا فله مانوى * فالغازى والعالم والمقرى والمصلى وكل متعبد بشىء فليس له من عبادته الا مانواه فان نوى عبادة الله تعالى بعلمه لامتثال أمره وابتغاء مرضاته فله مانوى

وان نوى غرضا من أغراض الدنيا فقد فاتت العبادة ولم يساوى حاله حال من لم يعمل بل يستوجب به النار فانه انما أراد بالعبادة التى هي لله غير الله فهو كالمستهزىء بالله (ومثاله) كمن يتمثل بين يدى ملك قائما في معرض الخدمة وانما غرضه باطنا ملاحظة بعض غلمان الملك وبعض جواريه وما أجدره بالمقت والعقوبة والدليل على أن طالب العلم لغير الله يستوجب النار ولا يجو رأسا برأس ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه (قال) لاتتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس اليكم فمن فعل ذلك فهو في النار *وفي المستدرك على الصحيحين نقل هذا الخبر ولكن قال لتماروا به السفهاء أولتحبروا به المجلس فمن فعل ذلك فالنار النار (وفي) خبر آخر من تعلم صرف الكلام ليصرف به وجوه الناس الى نفسه لم يقبل الله تعالى منه صرفا ولا عدلا* فيفهم من هذا ان من طلب العلم ليكتسب به مالا أو ينال به عند الخلق مرتبة أو جاها أو يستفيد به بين عشيرته وأقاربه عزا أو احتراما أو يحرس به ماله عن الاطماع وعن اجتياح الظلمة أو ليخفف عن نفسه خراج السلطان أوليدفع عن نفسه أذى الجيران وتكبر الاقران ومحاسدة الاقارب ومعاداة الاجانب وجميع مايجرى مجراه من الاغراض سوى ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى وامتثال أمره والتقرب منه واحياء دينه وشريعة نبيه فهو عامد بتعلمه متعرض لسخط الله تعالى منخرط في سلك علماء السوء ومتعرض للوعيد الوارد في حقهم كما ورد في حق بلعام بن باعورا حيث وصفه الله تعالى بالغواية واتباع الشيطان والانسلاخ من آيات الله تعالى وشبهه بالكلب كل ذلك لانه أخلد الى الارض واتبع هواه وروى أن بعض الحكماء صنف ثلاثمائة وستين تصنيفا في الحكمة فاوحى الله تعالى الى نبي زمانه قل له انك قد ملأت الارض نفاقا وانى لاأقبل من نفاقك شيأ وكانه قصد به انتشار الصيت واتساع الجاه في أطراف الارض فقد بان بالبرهان القاطع من طريق النقل والقياس ان من تعلم العلم لغرض من الاغراض سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى فهو عاص ظالم أما من جهة النقل (فقوله) صلى الله عليه وسلم لاتتعلموا العلم لتباهوا به الناس الحديث ولما روى في المستدرك على الصحيحين انه (قال) صلى الله عليه وسلم ان أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة رجل استشهد أتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال قاتلت في سبيلك حتى استشهدت قال كذبت انما أردت ان يقال فلان جرىء فقد قيل فيؤمر به فيسحب على وجهه حتى ألقى في النار ورجل تعلم القرآن وقرأ

القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال ماعملت فيها قال تعلمت العلم وقرأت القرآن
وعلمته فيك قال كذبت انما أردت أن يقال فلان عالم قارئ فقد قيل فامر به فيسحب
على وجهه حتى ألقى في النار ورجل آتاه الله من أنواع المال فاتى به فعرفه نعمه
فعرفها فقال ماعملت فيها قال ماتركت من شئ تحب أن ينفق فيه الا أنفقت فيه لك
قال كذبت انما أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل فامر به فيسحب على وجهه حتى
ألقى في النار *وأما القياس فهوان التعلم والتعليم عبادة ولا تصح العبادة الا بنية خالصة
لله تعالى (مسئلة) فكما علمت ان الطالب عاص بتعلمه اذا قصد غير الله فاعلم ان
معلمه اذا علم ذلك من نيته فهو أيضا عاص بتعليمه وهو كبائع سيف من قاطع طريق
فكما ان العلم يصلح لان يتقرب به الى الله تعالى فالسيف يصلح لان يغزى به
ويجاهد به في سبيل الله تعالى فيضرب رقاب اعداء الله تعالى ولكن من علم من قصده
انه يريد أن يستعمله في قطع الطريق وايذاء المسلمين وقتالهم حرم الهبة والبيع منه
فكذلك علماء السوء هم قطاع طريق الدين على عباد الله تعالى وهم أسوء حالا من
قطاع طريق الدنيا فان غاية ضررهم نقصان المال وهلاك الدنيا وضرر علماء السوء
نقصان الدين وهلاك الآخرة والدنيا قليلة في جنب الدين والعاجلة حقيرة في جنب
الآخرة (مسئلة) فان قلت بم يعلم المعلم قصد المتعلم والنية أمر باطن لايطلع عليه
وقد أمرنا بالحكم على الظاهر والله تعالى يتولى السرائر (فاقول) ليس
كذلك فان الظاهر عنوان الباطن ورشح الاناء يدل على ما في الاناء والاعمال رشح
النيات وهى دالة على السرائر فاذا رأى المتعلم مكبا على الشهوات متبعا للهوى في
المعاملات متكالبا على طلب الدنيا الاعلى المنهاج المباح لم يشك في ان طلب الدنيا واتباع
الهوى غالب على باطنه ويتبين ذلك بالضرورة من أعماله وقرائن أحواله بل أزيد عليه
(وأقول) مهما اشتغل بعلوم هى من فروض الكفايات قبل الفراغ مما هو فرض العين
من العلم والعمل وهى تطهير الجوارح عن الاثام وتطهير الباطن عن الصفات المهلكة
من الكبر والحسد والرياء والعداوة والبغضاء وسائر الاخلاق المذمومة فذلك يدل
على انه يطلب بعلمه الجاه والمال دون سعادة الآخرة فان معرفة الاخلاق الذميمة
وتميزها عن المحمودة ومعرفة علاج التنزه منها ثم الاشتغال بالرياضة والمجاهدة التى بها
يظهر منها كل ذلك من فروض الاعيان فلا يجوز الاشتغال بمذهب الفقه وخلافه
وأصوله قبل الفراغ منه (بل) أزيد على هذا (وأقول) المتفقه اذا ترك الصلاة
بالجماعة بغير عذر ظاهر فليس يطلب بالعلم زيادة الدين وسعادة الآخرة والا فاذا

يقول مع نفسه أينكر قول النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة * فيكون كافرا بانكاره أو بقربه ولكنه لايريد هذا الربح ويستحقره فيظهر الخلل في عقله ومن هذا حد عقله متى يطلب زيادة الدين بعلمه (أم) يقول أنا مؤمن به ومريد له ولكن الكسل يمنعني عنه فمن هو أسير الكسل الى هذا الحد كيف يتأتى منه العمل بالعلم وتجرع مرارة التقوى والكف عن الدنيا واتباع الهوى ومن ثمرة العلم وما مقدار التعب الذى يزيد بان يصلى بالجماعة على التعب الذى في الانفراد فاذا كان زيادة سبع وعشرين درجة لايصده عن هذا القدر من الكسل فمتى يرجى خيره وتصلح نيته وانما أوردت الصلاة بالجماعة مثالا والا فجميع السنن والرواتب المؤكدة لاتسمح نفس المتعلم لله تعالى بالتهاون بها أصلا (مسئلة) فان قلت اذا علم الاستاذ فساد نية المتعلم فهل يحل له صرف جراية المتفقهة اليه (فاقول) لا يحل له ذلك الا ان اشتغل بالعلم النافع لان الجراية اعانة على الدين وهذا عاص بتعلمه ولا اعانة على المعصية فمهما صلحت نية المتعلم حل له تناوله الجراية فان فسدت حرم وان كانت صالحة في الاصل ثم خطر له خاطر الرياء وطلب الجاه بالعلم فاللقمة مثلا في فيه انقلبت حراما ووجب عليه ان يلقى اللقمة ولايبتلعها أو يعود الى التوبة واصلاح النية (مسئلة) فان قلت فان كان المتعلم عاصيا بتعلمه فليجب على المعلم منعه من التعلم لان المنع من المعصية واجب (فاقول) ان كان يشتغل المتعلم بالعلم النافع الذى يعرفه فساد نيته ويخوفه مغبة أمره وهلاك دينه بسوء سريرته ومعاملته فلا يمنعه عنه بل يحثه عليه لان هذا مرض في قلبه وانما علاج هذا المرض هذا النوع من العلم النافع وهو الذى اودعناه كتاب الفاتحة بل كتب الاحياء كلها ومن جملته علم القرآن وعلم الاخبار وبالجملة كل علم فيه تخويف وانذار (فان) المريض لايمنع من العلاج فاما ماعدا هذا من العلوم فيجب المنع منه كعلم فقه مذهبه وخلافه والاصول والكلام وكل علم خال عن التخويف والانذار وبيان آفات الاعمال وعيوب النفس وبيان خساسة الدنيا وانها متاع الغرور وبيان عظم الدار الآخرة وانها دار القرار فهذه العلوم اذا صادفت قلبا مائلا الى طلب الدنيا زادته فسادا على فساد وهيأت له أسباب الدنيا ودعته الى صحبة أهلها والاشتغال معهم بالمباهاة والمنافسة والرياء والمداهنة ونبت فيه بذور الصفات المهلكة من الحسد والرياء والكبر والعداوة والتعصب وسائر الاخلاق الذميمة وليس الخبر كالمعاينة ولهذا حث الله تعالى الطلب على هذا العلم خاصة فقال «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا

اليهم لعلهم يحذرون» فانظر في العلم الذى فيه الانذار فان كان في اللعان والظهار والسلم والاستئجار فاشتغل به والا فاطلب العلم المنذر ماهو واشتغل به فهو العلم الذى قاله بعض السلف تعلمنا العلم لغير الله فابى العلم الا ان يكون لله فمثل هذا العلم يأبى الا أن يكون الا لله وأما سائر العلوم فتكاد تأبى أن تكون الا لغير الله اللهم الا في حق المتخرق في محبة الله تعالى فانه يبتغى في كل علم وعمل وجه الله تعالى وعلى الجملة ليس الخبر كالمعاينة (مسئلة) فان قلت فماذا تقول فيمن قصد بالتعلم وجه الله تعالى والدار الآخرة وهو مع ذلك يقصد العز والوقار وان يكون ذا منصب محترم بين الاقارب والاجانب (فاقول) هذا لم تفته اصل النية ولكنه قد فاته الاخلاص وكما ان النية شرط صحة العبادة فكذلك الاخلاص شرط صحة النية وهو كمن يصلى لله تعالى ويقصد مع ذلك ان يرى الخلق صلاته فيعتقدون فيه الزهد والعبادة والورع وينظرون اليه بعين الوقار وقد ورد فيه من الوعيد ما سنذكره في بحث الرياء ان شاء الله تعالى وقد قال الله تعالى «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا (قيل) أراد به الاخلاص وان لا يريد بعمله مع الله غير الله (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله أنا أغنى الاغنياء عن الشرك فمن عمل لى عملا وأشرك فيه غيرى فهو له كله وأنا منه برىء (وقد) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل في سبيل الله ليثاب ويحمد فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله * خصص ذلك بالمخلص ومهما امتزجت النية فهل يعتبر الغالب في تصحيحها نظر سنذكره (مسئلة) كما يجب تصحيح النية على المتعلم فيجب تصحيحها أيضا على المعلم بل هو أهم لان عبادة التعليم أشرف من عبادة التعلم ولان فساد المتعلم مقصور عليه وفساد المعلم يسرى الى سائر المتعلمين فان غاية التلميذ التشبه بالاستاذ والاقتداء به فزلة العالم زلة عالم وليكن نيته القرب الى الله تعالى باحياء دينه ونشر شريعته ودعوة الهاربين من عباده اليه والقيام بخلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اصلاح أمته وفي سياقهم الى جوار الله تعالى ولا ينبغى أن يقصد به انتشار الصيت وقيام الجاه في قلوب السلاطين وفي قلوب العوام ولا أن يقصد به الاستخدام والاستتباع والتظاهر بكثرة الانصار والاتباع ومباهاة الاقران بكثرة الاصحاب ولا ينبغى أن يمن على تلامذته بتعليمه حتى ينتظر منهم ثوابا وجزاء وخدمة وموالاة ونصرة فكل ذلك مما يفسد نية العبادة بل يقتدى بالانبياء كلهم حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله (لاأسئلكم عليه أجرا) وتأمل سورة

الشعراء وحكاية دعوة الانبياء فما ضمنت هـذه السورة هذه الحكايات لتسمعها سماع الاسمار بل لتطلع منها على الاسرار فـلا يقول أحد من الانبياء لقومه فاتقوا الله وأطيعون الا ويقول قبل ذلك (وما أسئلكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون) فتصفح هـذه القصص في دعوة نوح وابراهيم وموسى وهود ولوط وشعيب وصالح وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين فاخلاص النية مقدمة دعوتهم بالكلية فاذا ان أخلص الاستاذ نيته فهو من علماء الدين والا فهو من علماء السوء يطلب بعبادة الله غير الله ومن علم هذا من أسرار الدين قطعا وراجع نفسه فرأى فيها من نوازع البشرية مارأى فلا يتصور أن يفرح في الدنيا ولهذا قال علماء السلف من ازداد علماازداد وجلا ومن لايلازمه الحزن والخوف في أكثر الاحوال فيكاد أن لايكون من العلماء (فانما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك علماء السلف كانوا فما رؤى الحسن البصرى رضى الله عنـه الا وكانه انصرف من جنازة عزيز من أعزته لشدة حزنه وخوفه واجتاز بجماعةمن الصبيان يلعبون فقال العبوا فو الله ماقرت عيني منذ فارقتكم (وليت) شعرى من عـلم انه تعبد بتطهير قلبه عن هذه النوازع واخلاص نيته وعلمه لله تعالى وقد شحن باطنه بهـذه النوازع والشهوات وكاف تطهير القلب منها بالرياضة والمجاهدة متى يتفرغ الى أن يهتم بالبحث عن قول من يهذى فيقول ان كان هـذا غرابافزينب طالق وان لم يكن فعمرة طالق ومهـما طلقت حفصة فعمرة قبلها طالق ومهما طلقت عمرة فحفصة قبلها طالق لايتفرغ لذلك الا غافل مغرورا وملك مقرب فرغ من تطهـير ظاهره وباطنه واسـتأصل مغارس الشهوات بالكلية من قلبه وجرد قصده لله تعالى وأعرض عن الدنيا بالكلية وفرغ من نفسه الى غـيره فاراد أن يهتم بالوقائع النادرة التى تقع لآحاد المسلمين حتى يعرفهـم طريق الشرع فيها وطوبى لمن تفرغ لذلك وما أعظم مكانه عند الله تعالى (مسئلة) فان قلت من لايحضره مثـل هـذه النية الخالصة في التدريس والتعليم فهل يلزمـه الاعراض عن نشر العلم أم يجب عليه النشر مع فساد النية (فاقول) نشر العلم لغير الله معصية كالصلاة لغير الله والغزو لغير الله ولكن يفارق الصلاة من حيث أنه سبب ترغيب الناس في الطاعة والخير أعنى نشر العلم الداعى الى الخير فناشر العلم النافع هالك في نفسه ولكن يجو ويسعد بسببه خلق كثير مهما لم يطلعوا على فساد نيته (وقد قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم (وقال) ان الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر *فمثل هذا العالم هالك في نفسه فمن أين

ينفعه نجاة غيره فيجب عليه أن كان ينظر لنفسه أن يعرض عن نشر العلم ويشتغل باصلاح قلبه وتصحيح النية بالرياضة فانما نجاته في ذلك (اما) اذاسئلنا عن ذلك لم نأمره بالاعراض لان في اعراضه فساد خلق كثير وفي اقباله فساده وحده ونجاة خلق والجمع في ميزان الشرع مرجح على الواحد فلا نمنعه ولكن نقول له انشر العلم وأصلح النية ولا نبالي ان هلك هو وصلح بسببه خلق أما اذا لم يكن اشتغاله بالعلم النافع المنذر المخوف فنمنعه منه و نعيره على ذلك فانه يزداد بذلك في نفسه فساداوكل من يجالس بين يديه يسرى اليه فساده فالعالم ذو الحزم ينظر لنفسه فيعلم انه اذا هلك لاينجيه صلاح غيره فاذا أحس من نفسه الضعف عن القيام بحق النشر والافادة أعرض اذ وجب عليه الاعراض فان جاهد نفسه وراضها وصادف من نفسه تصحيح النية والقيام به بشرط الافادة عاد وأقبل ووجب عليه العود والاقبال (ولقد أعرضنا) مدة لتحقق العجز واليأس عن القيام بشرط النشر ثم رجعنا اليه حيث رجونا قوةالقيام بالشرط ظاهرا وباطنا (ولقد كان) الصارف هو اليأس في الوقت وتحقق العجز والداعى الآن ليس هو يقين القدرة والثقة بمواعيد النفس والأمن من خداعها وغرورها فان النفس خداعة مابسة مكارة تعد بالخير ثم اذا طلب منها الوفاء بالوعد ربما نكصت ورجعت الى سجيتها ولكن الرجاء الغالب هو الداعي اليه فان خاب هذا الرجاء بعد الامتحان فيجب العود الى الاعراض فلا ينبغى أن يقضى العجب من الإعراض في مدة والاقبال في مدة والاعراض بعد الاقبال ان اتفق بل يجب تقليب الاحوال عند تقلب النيات والقلوب * وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء (مسئلة) فان قلت فما علامة صحة النية وفسادها في التعليم وبم يعرف المعلم من نفسه ذلك فضلا عن غيره (فاقول) علاماتها كثيرة وجملتها أن يتمكن من ملازمة التقوى في جميع مصادره وموارده وذلك لاينحصر ولكن نذكر علامتين خاصتين (احداهما) أن يكون بحيث لو أتعب نفسه مدة في حق تلميذه حتى خرجه في العلوم وبلغه الدرجة العليا فقصر في حقه في القيام بخدمته وانحاز الى بعض أقرانه فلا يزيد انكاره وتعجبه من تقصيره بسبب ماسبق من تعليمه اياه فلو وجد في نفسه مزيد انكار فيدل على انه كان يمن عليه بتعليمه وعرف لذلك حقا عنده وطلب له من جزاء وشكر أو مكافأة فهذا يدل على ان تعليمه لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل ينبغى أن يقبل المنة من تلميذه اذ هدف قلبه ليزرع فيه علمه ويؤدى به حق الله تعالى في خلافته ووراثة نبيه لينال ثمرته في الآخرة كمن أعاد له

ارضا ليزوع فيها (الثانية) انه اذا ظهر في أقرانه من هو أفضل وأقوى منه وكان أقدر على الارشاد والدعوى الى الصلاح منه وانحاز أصحابه اليه للاستفادة منه فينبغى أن يفرح به ان كان قصده ارشاد عبادالله تعالى فقد ظهر من كفاه مؤنة التعب فما باله يحزن به ويجزع نفسه منه ويكون كمن وجد مسلما وقع في بئر وعلى رأسه حجر ثقيل فاشتغل بتنحية الحجر الثقيل لانقاذ المسلم حسبة لله تعالى فحضر من هو أقوى على رفع الحجر منه ورفع الحجر وكفاه مؤنة التعب فانه يفرح به ويشكره عليه فما باله لايشكر من كان من أقرانه أفضل وأتقى وعلى ارشاد المتفقه أقوى وعنـد هذا للنفس خديعة وينبغى أن يتفطن لهـا اذ تقول ليس حزنك على فوات الجاه واعراض الاتباع بل على مايفوتك من ثواب التعليم فانه مهما كثر التعليم كثر الثواب وهذا صحيح ولكن ينبغى أن يكون بحيث لو عرف ان ثوابه في الخمول وفي التسليم الى الافضل أكثر من ثوابه في القيام بنفسه بالتعليم فينبغى أن تسمح نفسه بذلك بل ترغب فيه بل لاتسمح نفسه بالقيام به كما كان في حق عمر رضى الله عنـه فانه علم ان في القيام بالخلافة من الثواب ماليس وراءه ثواب ثم لما علم ان أبا بكر الصديق رضى الله عنهما أصلح للامارة منه قال لان أقدم فتضرب عنقى أحب الى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر فهذا هو الصدق ولا يقبل في القيامة الا الصدق وليسئل الصادقين عن صدقهم * فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم * وكلما ازداد علما بهذا الخطر ازداد الخوف والحزن والوجل والعلم النافع مايعرفك هذا الخطر فلا تشتغل الا به (مسـئلة) فان قلت تعلم العلم لغير الله حرام أى علم كان أم مخصوص ببعض العلوم (فاقول) هو مخصوص بالعلوم الدينية التى هى من جملة العبادات فاما ماليس من العلوم الدينية كالطب والحساب فلا يحرم أن يقصـد بتعليمه الجاه وكسب المال واما ماهو من العلوم الدينية كالتفسير والاخبار وعلم الفقه والاصول والكلام فلايجوز تعلمها لغير الله والنحو واللغة لايتعلق بعلم الدين ولكنه آلتـه وليس بمقصود فينبـغى أن يلحق بالحساب والطب في أنه يجوز تعلمه لكسب المال والجاه وبالجملة (قوله) عليه الصلاة والسلام من تعلم العلم لاربع دخل النار (وقوله) لاتتعلموا العلم لتباهوا الحديث ورد في العلم مطلقا ولكنا نخصصه بالعلوم الدينية التى هى من جملة العبادات بدليل ماروى أبو هريرة رضى الله عنه مفصلا انه عليه الصلاة والسلام (قال) من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى لايتعلمه الا ليصيب به غرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (مسئلة) فان قلت أليس يأخذ المتعلم جراية

في المدارس ويأخذ المعلم رزق المدرس ومرسومه المرسوم به (فاقول) من أخذ الجراية ليتعلم فهو له مباح ومن تعلم ليأخذ الجراية فهو حرام فينبغي أن ينظر الى المقصود فرب متعلم لو قطعت الجراية عنه ترك التعلم وان كان مكفيا من وجه آخر ولو خلت المدرسة عن المدرس سنة فلا يبالى بل يعتكف في المدرسة ويطالب بالجراية رأس كل شهر ويغتنم تعطيل المدرس ولو قطعت الجراية عنه شهرا مع دوام التدريس والافادة لاضطرب وبغى على المدرس وأطال فيه لسانه ورب متفقه لايمكث يوما في المدرسة المعطلة وان كانت الجراية دارة والله تعالى مطلع على النيات وكذلك للمدرس أن يأخذ مايكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة ويأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود وربما اشتغل اليه بالنشر لاجل المال وغرضه ومقصوده المال وانما النشر وسيلة له (مسئلة) فان قالت أليس يجوز عند الشافعي رضى الله عنه أخذ الاجرة على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن (لما روى) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال زوجتكها بما معك من القرآن * وهذا تعليم لغير الله تعالى (فاقول) هذا جائز ونزيد على هذا فنقول يجوز أخذ الاجرة على الاذان واقامة صلاة التراويح ويجوز للمعيد أخذ الاجرة على مسائل معينة يكررها وللمدرس على مسائل بعينها يتعب نفسه فيها ولا ينبغى أن يظن ان امام صلاة التراويح يأخذ الاجرة على الصلاة وان الصلاة لغير الله جائزة بهذا الدليل فذلك حرام بالاتفاق ولكن اتعابه نفسه في حضور موضع معين وقيامه به في وقت معين ليس بواجب عليه وليس من نفس العبادة وانما الاجرة في مقابلة ذلك التعب وكما أن المصلى في الدار المغصوبة مطيع من حيث انه مصل عاص من حيث أنه كائن في الدار المغصوبة فكذلك هو مخلص من حيث أنه يصلى التراويح لله تعالى معتاض من حيث أنه يحضر المكان المعين ويقيم العبادة في الوقت الذى يعينه المستأجر وكذلك اتعابه نفسه في تلقين سورة القرآن شخصا معينا ليس بواجب عليه فله أن يتقرب الى الله تعالى بهذا التعب وله أن يأخذ العوض عليه وان كان ذلك من فروض الكفايات كحفر القبور ودفن الموتى وغسلهم والدليل عليه ان من تعين عليه تعلم الفاتحة فليس له أن يتعلم الا لله تعالى لانه فرض دينه ومعلم الفاتحة له أن يأخذ الاجرة وان كان تعلمها واجبا على المتعلم ولكن ليس يلزمه اتعاب نفسه مجانا بل المضطر في المخمصة يجب على مالك الطعام أن يبذل له الطعام ويتعين اذا لم يحضره غيره ولكن يجوز له أن يبيعه وأن يملكه بعوض لان الواجب عليه الانقاذ لاالانقاذ

مجانا فكذلك التعليم

﴿الباب الثالث فى العلامة الفاصلة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة﴾

اعلم ان أصل فساد علماء السوء في نيتهم ثم في معاملتهم وانما يعلم بواطنهم بعلامات ظاهرة من معاملاتهم فلنسمّ علماء الدين وهم الابرار علماء الآخرة وعلماء السوء وهم الاشرار علماء الدنيا (فنقول) لعلماء الآخرة علامات (أولها) ان لا يطلب الدنيا بعامه فان أقل درجات العالم ان يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة وشرفها ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم انهما متضادان وانهما كالضرتين مهما أرضيت احديهما أسخطت الاخرى وانهما ككفتي الميزان مهما رجحت احديهما أرتفعت الاخرى فان من لا يعلم حقارة الدنيا وكدورتها وقرب انصرامها فهو فاسد العقل فان المشاهدة والتجربة ترشد اليه فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ومن لا يعلم عظم سعادة الآخرة ودوامها فهو مسلوب الايمان فكيف يكون من العلماء من لا أيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وان الجمع بينهما طمع في غير مطمع فهو جاهل بشريعة الانبياء كلهم بل هو كافر بآيات القرآن ونصوصه فكيف يعد من زمرة العلماء من هذا جهله بشريعة الانبياء ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذا درجته ولهذا قال الحسن رضى الله عنه عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وقال عمر رضى الله عنه اذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم فان كل محب يخوض فيما أحب (وروى) أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أوحى الله تعالى الى بعض أنبيائه قل للذين يتفقهون لغير دين الله ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر اياى يخادعون وبى يستهزئون لأتيحنّ لهم فتنة تذر الحليم حيران (وروى) الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال علماء هذه الامة رجلان رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا فذلك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الارض والكرام الكاتبون يقدم على الله تعالى يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ورجل

آتاه الله علما في الدنيا فضن به على عباد الله تعالى وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا يأتي يوم القيامة ملجما بلجام من نار ينادي مناد على رؤس الاشهاد هذا فلان بن فلان آتاه الله علما فضن به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا قليلا يعذب حتى يفرغ من حساب الخلق (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة (وروى) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه موقوفا ومرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لا تجلسوا عند كل عالم الا الى عالم يدعوكم من خمس الى خمس من الشك الى اليقين ومن الرياء الى الاخلاص ومن الرغبة الى الزهد ومن الكبر الى التواضع ومن العداوة الى النصيحة * وقال عيسى صلوات الله عليه ياعلماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون وتدرسون مالا تعملون فياسوء ما تحكمون تتوبون بالقول والاماني وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويبقى فيه النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم ياعبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته بحق أقول ان قلوبكم تبكي من أعمالكم جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول أفسدتم آخرتكم بصلاح الدنيا فصلاح الدنيا أحب اليكم من صلاح الآخرة فاي الناس أخس منكم لو كنتم تعلمون ويلكم الى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين كانكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم فتأكلوها مهلا مهلا ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم كذلك لا يغني عنكم ان يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة ياعبيد الدنيا لا كعبيد اتقياء ولا كاحرار كرام يوشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم وتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخيركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم يدفعكم العلم من خلفكم حتى يسلمكم الى الملك الديان عراتا حفاتا فراداً فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم (ثانيها) أن يكون بما يأمر به أول عامل وعما ينهى عنه أول منته * قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقال (كبر مقتا عند الله أن تقولوا بما لا تفعلون) وقال في قصة شعيب عليه الصلاة والسلام (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) وقال تعالى لعيسى ياابن مريم عظ نفسك فان اتعظت فعظ الناس والا فاستحي مني وقال الفضيل بلغني ان الفسقة من العلماء يبدأ بهم قبل عبدة الاوثان

وقال حاتم الاصم ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل به ففازوا بسببه وهلك وقال ابن السماك كم من مذكر بالله ناس لله وكم من داع الى الله فارمن الله وكم من مخوف بالله جرىء على الله وكم من مقرب الى الله بعيد من الله وكم من تال لكتاب الله منسلخ من آيات الله (وقال) مكحول حدثني عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا كنا ندرس العلم في مسجد قباء اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعلموا ماشئتم ان تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعملوا * وقال ابن مسعود رضى الله عنه سيأتى على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ومتعلمه فتكون قلوب علمائهم مثل السباخ من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة وذلك اذا مالت قلوب العلماء الى حب الدنيا وايثارها على الآخرة فعند ذلك يسلبهم الله تعالى ينابيع الحكمة ويطفىء مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والفجور بين في عمله فما أخصب الالسن يومئذ وما أجدب القلوب فو الله الذى لااله الا هو ماذاك الالأن المعلمين علموا لغير الله والمتعلمين تعلموا لغير الله (وقد) قال صلى الله عليه وسلم ان الشيطان ربما سبقكم بالعلم فقيل وكيف ذلك قال يقول اطلب العلم ولا تعمل حتى تعلمه كله فلا يزال في العلم قائلا وللعمل مسوفا حتى يموت وما عمل (ثالثها) ان تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعة الصارف عن الدنيا ويتوقى العلوم التى يكثر فيها الجدال والقيل والقال فمثال من يعرض عن علم الاعمال ويشتغل بالجدال والتفاريع النادرة في المسائل (مثال) رجل مريض به علل كثيرة صادف طبيبا حاذقا في وقت ضيق يخشى فواته فلم يسئله عن علاج مرضه واشتغل بالسوال عن خاصية العقاقير والادوية وغرائب الطب وذلك محض السفه (جاء) رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمنى من غرائب العلم فقال عليه الصلاة والسلام وماذا صنعت في رأس العلم قال ومارأس العلم فقال هل عرفت الرب قال نعم قال وماصنعت في حقه قال ماشاء الله قال هل عرفت الموت قال نعم قال فما أعددت له قال ماشاء الله قال اذهب فاحكم ماهنا لك ثم تعال نعلمك من غرائب العلم * فهذا يدل على ان الواجب احكام رأس العلم وهو الايمان بالله واليوم الآخر فانه قال هل عرفت الله وهل عرفت الموت بل ينبغى أن يكون التعلم من جنس ماروى عن حاتم الاصم تلميذ شقيق البلخى قال له شقيق منذكم صحبتنى قال منذ ثلاث وثلاثين سنة فقال فما تعلمت منى في هذه المدة فقال ثمان مسائل * قال شقيق (انا لله وانا اليه راجعون) ذهب عمرى معك

ولم تتعلم الايمان مسائل قال يا أستاذ انى لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب فقال هات ماهى قال حاتم (نظرت) الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يحب محبوبا اذا دخل القبر فارقه فجعلت الحسنات محبوبى حتى اذا دخلت القبر دخل محبوبى معى فقال أحسنت ياحاتم فما (الثانية) قال نظرت في قوله عزوجل (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) الآية فعلمت ان قوله حق فاجهدت نفسى في دفع الهوى حتى استقر قلبى في طاعة الله تعالى (الثالثة) نظرت الى هـذا الخلق فرأيت كل من معه شئ له قيمة عنده ومقدار رفعه وحفظه ثم نظرت الى قوله تعالى (ماعندكم ينفد وما عند الله باق) فكلما وقع معى شئ له مقدار وقيمة وجهته اليه ليبقى لى عنده (الرابعة) انى نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد يرجع الى مال أو حسب أو نسب أو شرف فنظرت فاذاهى لاشئ ثم نظرت الى قوله تعالى (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) فعملت في التقوى حتى أكون عند الله تعالى كريما (الخامسة) نظرت الى هذا الخلق وهم يطعن بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت الى قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا) فتركت الحسد واجتنبت الخلق وعلمت أن القسمة من الله فتركت عداوة الخلق (السادسة) نظرت الى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقاتل بعضهم بعضا والشيطان يدلهم بغروره ويبديهم بوساوسه فعاديته ورجعت الى قوله تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخـذوه عدوا) فعاديتـه وحده واجتهـدت في أخذ حذرى منه لان الله تعالى شـهد عليه انه عـدو لى فتركت عـداوة الخلق (السابعة) نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة ويذل نفسه ويدخل فيما لايحل له ثم نظرت الى قوله تعالى (وما من دابة في الارض الاعلى الله رزقها) فعلمت انى واحد من هذه الدواب فاشتغلت بحق الله تعالى وتركت مالى عنده (الثامنة) نظرت الى هـذا الخلق فرأيتهم متوكلين هذا على ضيعته وهذا على تجارته وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه وكل مخلوق متوكل على مخلوق فرجعت الى قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسـبه) فتوكلت عليه فهو حسبى قال شقيق ياحاتم وفقك الله فانى نظرت في علم التوراة والانجيل والزبور والقرآن العظيم وهى تدور على هذه المسائل الثمانية فهذا الفن من العـلم يهتم بادراكه علماء الآخرة وأما علماء الدنيا فيشتغلون بعلوم تتعلق بالخلق ليتيسر لهم اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التى بها بعث الله الانبياء وقال الضحاك أدركتهم وما يتعلم بعضهم من بعض

الا الورع وهم اليوم يتعلمون الكلام (رابعها) أن يكون غير مائل الى الترفه في المطعم والتنعم في الملبس والتجمل في الأثاث والمسكن وأن يميل فيه الى القناعة والقلة ما أمكنه أخذا بالحزم واقتداء بالسلف وكلما زاد في المباحات الى طرف القلة ميله ازداد من الله تعالى قربه وارتفع في علماء الآخرة درجة (حكى) عن أبي عبد الله ابراهيم الخواص وهو من أصحاب حاتم قال دخلنا مع حاتم الرىّ يريد الحج فاخبر حاتم بان قاضى الرى محمد بن مقاتل رجل عالم وهو مريض فقال زيارة العالم وعيادة المريض فيه فضل كثير فخرج لعيادته فرأى بابا مشرفا عاليا ودارا قوراء حسنة وتجملا خارجا عن الحد فدخل عليه فاذا هو نائم على فرش وطيئة فبقى حاتم متفكرا وقال هذه دار عالم فقعد القاضى المريض لاحل حاتم وسأله الجلوس فلم يجلس وقال لعل لك حاجة قال نعم قال هات قال مسئلة اسئلك عنها فاستوى قائما حتى اسئلك فاستوى قائما بين يدى الجميع فقال حاتم علمك هذا من اين اخذته قال الثقات حدثونى به قال عن من قال عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهم عن من قال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو عن من قال عن جبريل عن الله تعالى قال وهل سمعت فيما حدثك هولاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى ان من كان داره أوسع وتجمله اكثر وماله أوسع فمنزلته عند الله أكبر قال لا قال فكيف سمعت قال سمعت من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم لآخرته كانت منزلته عند الله تعالى أرفع قال قلت بمن اقتديت أبالنبى وأصحابه أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالجص والاجرّ ياعلماء السوء فمثلكم يراه الجاهل متكالبا على الدنيا راغبا فيها فيقول عالم الزمان هكذا أفلا كون خيرا منه وخرج من عنده فازداد ابن مقاتل مرضا (فاخبر) حاتم ان الطنافسى بقزوين أعظم توسعا منه فسار اليه متعمدا ودخل عليه ورأى تجمله الواسع فقال له رحمك الله أنا رجل أعجمى أريد ان تعلمنى وضوئى ومفتاح صلاتى قال نعم حبا وكرامة فدعا بماء وتوضى بين يديه ثلاثا ثلاثا وقال هكذا توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حاتم فانا أتوضأ أيضا بين يديك فيكون أوكد لما أريد فقال نعم فتوضأ حاتم فغسل الذراعين أربعا فقال الطنافسى أسرفت قال حاتم فيما ذا قال في الغسلة الرابعة قال حاتم سبحان الله أنا أسرفت في كف من ماء وأنت في هذا الجمع كله لم تسرف فتنبه الطنافسى لغرضه فخجل ودخل البيت ولم يخرج الى الناس أربعين يوما ثم سار الى بغداد فاجتمع اليه العلماء وقالوا له أنت رجل أعجمى لكن لايكلمك أحد الا قطعته قال معى

(ثلاث) خصال بهن أظهر على خصمي أفرح اذا أصاب خصمي وأحزن اذا أخطأ وأحفظ
نفسي ان تجهل عليه فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال سبحان الله ما أعقله قوموا بنا
اليه فلما دخلوا عليه قال يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا قال يا أبا عبد الله لا تسلم
من الدنيا حتى يكون معك (أربع خصال) تغفر للقوم جهلهم وتمنع جهلك وتبذل لهم
شيئك وتكون من شيئهم آيساً فاذا كنت هكذا سلمت (ثم سار) الى المدينة فاستقبله
أهل المدينة فرأى فيها قصورا مرتفعة وأبنية مشيدة قال ياقوم أية مدينة هذه قالوا مدينة
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
أصلى فيه قالوا ما كان له قصر انما كان له بيت لاطئ بالارض قال فأين قصور أصحابه
قالوا ما كان لهم الا بيوت لاطئة بالارض قال حاتم ياقوم فهذه مدينة فرعون فاخذوه
وذهبوا به الى الوالى قالوا هذا العجمى يقول لمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم
انها مدينة فرعون قال الوالى ولم قلت ذلك قال لا تعجل على أنا رجل أعجمى سألت
هؤلاء عن قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصور أصحابه وقص عليه القصة ثم قال
وقد قال الله تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) فانتم بمن تأسيتم برسول
الله وباصحابه أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر فخلوا سبيله وتركوه * فمثل هذا
العالم يصلح بكلمة واحدة أهل بلدة وعالم السوء يفسد بصورته أهل بلدة فضلاً عن
سيرته ولكن من كان تعلمه في ثلاث وثلاثين سنة ثمانى مسائل من الجنس الذى ذكرناه
كان تعليمه كذلك (أما اذا كان) أول مقصدك من التعلم التوضى بنبيذ التمر وهل يجوز دباغ
جلد الكلب وزكاة الحمار وهل تفيد طهارة الجلد وما يجرى مجراه لم يحصل من علمك
لاصلاح نفسك ولاصلاح غيرك ودل اشتغالك في الابتداء به على خلل عقلك فمتى
رأيت رجلا يملك حمارا فيذبحه ثم يلبس جلده قبل الدباغ حتى تصرف همتك اليه وتبين
ن هذه جيفة ميتة لا يجوز لبسها ويجب دباغها وقلبك ميت وهو بين جنبيك وقد انتشر
نته في الآفاق فلم لا تهتم بدباغه وتطهيره عن نجاسته ولا تتعلم طريق دباغه ومتى رأيت رجلا
نى بامرأة وجاءت بولد ثم تزوجها حتى تصرف همتك الى ان هذا النكاح جائز ام فاسد
والمقصود) ان علماء الآخرة يقنعون من الدنيا بالقليل ويتركون التجمل وان كان مباحا
لمهم بان ذلك المباح يدعوهم الى الحرام كما قال عمر رضى الله عنه كنا ندع سبعين بابا من
لحلال مخافة الوقوع في الحرام والمشاهدة تدل على هذا فان التنعم لا يمكن الا بكثرة
لاسباب من الضياع والمستغلات ولا يمكن حفظ هذه الاسباب الا بالجاه ولا يتم الجاه

الا بمعاونة السلاطين ولا يتم ذلك الا بمخالطتهم ومتابعتهم وملازمة خدمتهم والسكوت على ظلمهم ومن خالطهم داراهم ومن داراهم داهنهم ورآهم ووقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا وعن هذا الهلاك عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث (قال) من أخذ من الدنيا فوق مايكفيه أخذ جيفة وهو لا يشعر * فان حفظ هذه المباحات يجره الى المعاصي المهلكة بالضرورة (خامسها) ان يكون منقبضا عن مخالطة السلاطين وزيارتهم لايدخل عليهم الا لضرورة شفاعة أودفع ظلامة أو لنصيحة وارشاد الى مصلحة ويقطع طمعه عن مالهم وجاههم حتى تنفذ نصيحته وتقبل شفاعته وقد احترز الاولون من الدخول على السلاطين (لما روى) عاصم ابن ضمرة عن علي كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال ان في جهنم واديا اذا فتح استجارت منه النار سبعين مرة اعدّ للقراء المرائين واشد القراء عذابا الذين يزورون الامرآء (وقد) قال صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل على عباد الله مالم يخالطوا السلاطين فاذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم رواه انس (وقال) صلى الله عليه وسلم شرار العلماء الذين يأتون الامراء وخيار الامراء الذين يأتون العلماء (وقال) صلى الله عليه وسلم من بدا جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن * وقال حذيفة رضي الله عنه اياكم ومواقف الفتن قيل وماهي قال أبواب الامراء يدخل أحدكم على الامير فيصدقه بالكذب ويقول ماليس فيه وقيل للاعمش لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذ عنك قال لا تعجلوا ثلث يموتون قبل الادراك وثلث يلزمون السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقي لا يفلح منهم الا قليل وقال سعيد بن المسيب اذا رأيتم العالم يغشى الامراء فاحترزوا منه فانه لص وقال الاوزاعي مامن شئ أبغض الى الله تعالى من عالم يزور عاملا وقال بعضهم الذباب على العذرة أحسن من الفقهاء على باب السلطان وقال أبو ذر لسلمة ياسلمة لاتغش أبواب السلاطين فانك لاتصيب من دنياهم شيأ الا أصابوا من دينك أفضل منه وكان يقال العلماء اذا علموا عملوا واذا عملوا شغلوا واذا شغلوا فقدوا واذا فقدوا طلبوا فاذا طلبوا هربوا وكتب عمر بن عبدالعزيز الى الحسن البصري رضي الله عنه (أما بعد) فأشر على بقوم أستعين بهم على أمر الله تعالى فكتب اليه أما أهل الدين فلن يريدوك وأما أهل الدنيا فلن تريدهم ولكن عليك بالاشراف فانهم يصونون شرفهم ان يدنسوه بالخيانة فهذا في مثل عمر بن عبد العزيز وهو ثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر له ان أهل الدين لن يريدوك وقال ابن مسعود رضي الله عنه ان الرجل

ليدخل على السلطان ومعه دينه فيخرج من عنده لادين له قيل كيف ذلك قال يرضيه بسخط الله تعالى (واستعمل) عمر بن عبد العزيز رجلا عاملا فقيل له انه كان عاملا للحجاج فعزله فقال له الرجل ما عملت له الا على شيء يسير فقال حسبك بصحبته يوما واحداً شؤما وشرا وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت ويقول ان في هذا لغنى عن هؤلاء السلاطين وقال وهيب هؤلاء الذين يدخلون على الملوك هم أضر على الامة من المقامرين (فان قلت) فما سبب هذا التشديد في الدخول عليهم لاسيما من لا يأخذ منهم شيأ (فاقول) سببه ان الداخل عليهم يتعرض لسخط الله تعالى وعصيانه أما في فعله أو سكوته أو قوله أو اعتقاده وقلّ من ينفك عن أحد هذه الامور (أما) الفعل فالداخل عليهم في غالب الامر يكون في دار مغصوبة أو معمورة بالمال الحرام أو مفروشة بالفرش المغصوبة فتخطى الدار والاستظلال بتلك العمارات ووطىء الفرش كل ذلك معصية فان فرض ان السطان في صحراء موات أو في مسجد لم يعص بمجرد الدخول ولا بقوله السلام عليك ولكن ان سجد أو ركع أو انحنى أو مثل قائما فانه كان مكرما للظالم بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية بل (قال) صلى الله عليه وسلم من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه * هذا في غنى غير ظالم فما قولك في الظالم فلا يجوز اكرام الظالم من غير ضرورة (نعم) اذا زارك تقربا الى الله تعالى والى العلم استوجب المكافأة على الاكرام بالاكرام لان قصد التقرب الى أهل الدين خير يجب الاكرام عليه حتى تزيد رغبته ولعله المراد بقوله صلى الله عليه وسلم اذا جاءكم كريم قوم فاكرموه (وقد) سلك بعض السلف في هذا سبيل الخشونة ولم يكرموهم وأنزاروهم استحقارا لهم وذلك أسلم وأولى اذا لم يؤدى الى كسر حشمة السلطنة ولم يكن سببا للتنفير عن اكرام العلم ويختلف ذلك باختلاف أحوالهم واعتقاداتهم ودياناتهم (وأما) المعصية بالسكوت فلانه يرى في مجالسهم من فرش الحرير واواني الفضة ومن الديباج الملبوس لهم ولغلمانهم ماهو حرام وكل من رأى سيئة وسكت عنها فهو شريك فيها بل النهى عن المنكر واجب قطعا بل يسمع من كلامهم ماهو فحش وكذب وايذاء والسكوت على جميع ذلك حرام (فان قلت) انما يجب ذلك اذا لم يخف على نفسه اما اذا خاف فهو معذور (قلت نعم) ولكنه مستغن عن الحضور والمشاهدة فهو غير معذور في حضوره بموضع تجرى فيه معصية الله تعالى فمن حضر مجالس شربهم وشاهد فسقهم وزعم انه معذور في سكوته للخوف لم يعذر وقيل يجب عليه ان لا يحضر مجلسا تجرى فيه معصية الله (واما)

القول فهو ان تدعوا له او يثنى عليـه او يصدقه فيما يقوله من باطل بصريح قوله أو بتحريك رأسه أوباستبشار في وجهـه أويظهر له الحب والموالاة والاشتياق الى لقائه والحرص على طول بقائه فانه في الغالب لا يقتصر على السلام وكلامه لا يعدو هذه الاقسام (اما) دعاؤه فلا يحل له الا أن يقول اصلحك الله أو وفقك الله للخيرات اوطول الله عمرك في طاعته وما يجرى هذا المجرى (فاما) الدعاء بطول العمر واتساع النعمة والخطاب بالمولى فلا رخصة فيه (قال) صلى الله عليه وسلم من دعا لظالم بالبقاء فقد احب ان يعصى الله تعالى في ارضه* فان جاوز الدعاء الى الثناء فيذكر ما ليس فيه فيكون كاذبا منافقا ومكرما لظالم وهذه (ثلاث) معاص وقد (قال) صلى الله عليه وسلم ان الله ليغضب اذا مدح الظالم (وفي) خبر آخر من اكرم فاسقا فقد أعان على هدم الاسلام *فان جاوز الدعاء والثناء الى التصديق فيما يقوله والتزكية فيما يفعل كان عاصيا بترك النهى عن المنكر وبالاعانة على المنكر فان التزكية والتصديق تحريك للرغبة وتجرئة عليه كما ان التكذيب والذم والتقبيح زجر عنه وتضعيف لدواعيه والاعانة على المعصية معصية ولو بشطر كلمة فان جاوز ذلك الى اظهار الشوق الى لقائه والفرح بدولته واقباله فان كان كاذبا عصى بمعصية النفاق والكذب وان كان صادقا عصى بحبه بقاء ظالم وحقه ان يبغضه في الله تعالى ويمقته فالبغض في الله تعالى واجب ومحب المعصية والراضى بها عاص ومن احب ظالما لظلمه فهو عاص وان احبه لالظلمه فهو عاص من حيث انه لم يبغضه والواجب عليه ان يبغضه وان اجتمع في شخص خير وشر وجب ان يحبه لما فيه من الخير ويبغضه لما فيه من الشر ويجمع بين الحب والبغض وسنبين كيفية الجمع في كتاب الآخرة واحكام المتحابين في الله تعالى من كتب احياء علوم الدين (واما) اعتقاده فاقول ان سلم من جميع ما ذكرنا فلا يسلم من فساد قلبه فانه اولا ينظر الى توسعه في النعمة فيزدرى نعمة الله على نفسه فيكون مقتحما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث (قال) لاتدخلوا على اهل الدنيا فانه مسخطة للرزق *قال الله تعالى (لاتمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجا منهم زهرة الحياة الدنيـا لنفتنهم فيه) ولاشـك في ان من يشاهد ذلك تتحرك رغبته و حرصه على الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة (وقد حكى) ان رجلا كان يمشى مع سفيان الثورى فانتهى الى باب مشيد مرفوع فنظر اليه فأنكر سفيان وقال هذا اعانة على الاسراف لان الناس لو لم ينظروا اليه لما فعلوه فى مثل هذا كان تدقيقهم في النظر

لا في الفروع النادرة في الفقه فقد بان ان الداخل على السلطان متعرض لهذه المعاصي فلا يجوز له ذلك الا لضرورات وهي ثلاثة * أحدها ان يكون من السلطان أمر الزام لا أمر اكرام وعلم انه لو امتنع أوذى أو أفسد عليه أمر الرعية واضطرب أمر السياسة * الثانية دفع الظلم عن مسلم معين أما بطريق الحسبة في حق غيره أو بالتظلم في حق نفسه * الثالثة النصيحة على العموم اذا علم مسيس الحاجة اليه وكان مقبول القول عندهم وفي هذا مكر للشيطان فانه ربما يحسن عنده مداخلة السلاطين ويقول انما غرضك مصلحة الخلق وشفاعة الضعفاء ولا يكون ذلك باعثه في السر بل اكتساب القبول والجاه وعلامته انه لو ظهر من هو أنفذ قولا منه في الشفاعة والنصيحة واستغنى عن الدخول لكان يحزن ويغتم ولو كان للضرورة لكان ذلك عنده غنيمة اذ كفى مؤنة التعب والتعرض للخطر واعلم ان أقل ما في مشاهدتهم من البعد ولو في الطريق حركة الرغبة في الدنيا وهو أساس كل فساد كما قال الله تعالى في قصة قارون (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون) حتى قال أهل العلم (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن) فالعلم الذى يعرّف هذا ينبغي ان يطلب فهو من جنس ماقاله حاتم الاصم قال انما بيني وبين الملوك يوم واحد أما أمس فلا يجدون لذته وأما غدا فانا واياهم منه على وجل وانما هو اليوم فما عسى أن يكون في هذا اليوم قال أبو الدرداء رضى الله عنه أهل الاموال يأكلون ونأكل ويلبسون ونلبس ويشربون ونشرب لهم فضول أموال ينظرون اليها ونحن ننظر معهم اليها عليهم حسابها ونحن منها براء فبثل هؤلاء العلماء يعلمون ثواب الله خير وبمثل هذا العلم تركوا لذ الدين أموال السلاطين فلم يأخذوه مع العرض اليهم وحكى عن مقاتل بن صالح قال كنت عند حماد بن سلمة واذا ليس في بيته الا حصير وهو جالس عليه ومصحف يقرأ فيه وجراب فيه كتبه ومطهرة يتوضأ فيها فبينما نحن عنده اذ دق داق الباب ففتح فاذا هو محمد بن سليمان أحد الخلفاء فدخل وجلس ثم قال مالى اذا رأيتك امتلأت منك رعبا فقال حماد لانه عليه الصلاة والسلام (قال) ان العالم اذا أراد بعلمه وجه الله تعالى هابه كل شئ وان أراد أن يكنز به الكنوز هاب من كل شئ * ثم عرض عليه أربعين ألف درهم في صرة فقال تأخذها وتستعين بها فقال أرددها على من ظلمته بها قال والله ما أعطيتك الا مما ورثته فقال لا حاجة لى فيها فقال فتأخذها فتقسمها قال لعلى ان عدلت في قسمتها ان يقول بعض من لم يرزق منه شيأ انه لم يعدل في قسمتها فيأثم فازوها عنى فهكذا كانت معاملة علماء الدين

مع السـلاطين اذا دخلوا لزيارتهم واذا استحضروهم حضروا بحكم الامر وبالغوا في النصح من غير مداهنة (كما حكى) ان هشام بن عبد الملك قدم حاجا الى مكة فقال ائتونى برجل من الصحابة فقيل تفانوا فقال من التابعين فأتى بطاووس اليمانى فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم عليه بأمرة المؤمنين ولكن قال السلام عليك ياهشام ولم يكنه وجلس بين يديه وقال كيف أنت ياهشام فغضب هشام غضبا شديدا وهم بقتله فقيل له أنت في حرم الله وحرم رسول الله فلا يمكنك ذلك فقال ياطاوس ماالذى حملك على ماصنعت فقال وما الذى صنعت فازداد غيظا وقال خلعت نعليك بحاشـية بساطى وهذا منكر في رسوم الخلفاء ولم تقبل يدى ولم تسلم علىّ بأمرة المؤمنين ولم تكننى وجلست بازائى بغير اذنى وقلت كيف أنت ياهشام فقال أما ماخلعت نعلى بحاشية بساطك فانى أخلعهما بين يدى رب العزة كل يوم خمس مرات فلا يعاقبنى ولا يغضب على وأما قولك لم تقبل يدى فانى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) لايحل لرجل ان يقبل يدى أحد الا امرأته من شهوة أوولده برحمة وأما قولك لم تسلم بأمرة المؤمنين فليس كل الناس راضين بامرتك فكرهت ان اكذب واما قولك لم تكننى فان الله تعالى سمى اولياءه وقال يا آدم ياداود ياعيسى يايحيي وكنى أعداءه فقال تبت يدا أبى لهب واماقولك جلست بازائى فانى سمعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب يقول اذا أردت ان تنظر الى رجـل من أهل النار فانظر الى رجل جالس وحوله قوم قيام فسكن غضبه واستحسن صدقه وورعه وقال ياطاووس عظنى فقال سمعت أمير المؤمنين على بن ابى طالب يقول (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم ان في جهنم حيات كالافيال وعقارب كالبغال تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته ثم قام وهرب (وحكى) ان سليمان بن عبد الملك من الخلفاء قدم المدينة وهو يريد مكة فارسل الى ابى حازم وهو من اكابر علماء الدين ودعاه فلما دخل عليه قال سليمان يا أبا حازم مالنا نكره الموت قال لانكم خربتم آخرتكم وعمرتم الدنيا فكرهتم ان تنقلوا من العمران الى الخراب قال ياأبا حازم كيف القدوم على الله تعالى قال اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله واما المسيء فكالآبق يقدم به على مولاه فبكى سليمان ثم قال ليت شعرى مالى عند الله قال اعرض نفسك على كتاب الله عز وجل حيث قال (ان الابرار لفى نعيم وان الفجار لفى جحيم) قال سليمان فاين رحمة الله قال قريب من المحسنين قال فما النجاة مما نحن فيه قال ان تأخذه من حله وتضعه في حقه. قال ومن يطيق هذا يا أبا حازم قال من طلب

الجنة وهرب من النار (وقال) عمر بن عبد العزيز لابى حازم عظنى قال اجعل الموت عند رأسك ثم انظر ما تحب ان يكون فيك تلك الساعة فخذه الآن وما تكره ان يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن فلعل تلك الساعة قريبة هكذا كان كلام العلماء مع السلاطين فتعلم اولا نيتهم ثم طريقتهم في الكلام ثم ادخل ولا بأس (سادسها) ان لا يكون مسارعا الى الفتوى بل يكون محترزا من تقلد خطر الاجتهاد وتكون المسائل عنده ثلاثة أقسام (قسم) يعلمه بنص كتاب الله تعالى أو سنة أو قياس جلى فيفتى به (وقسم) يشك فيه فيقول لاأدرى ولا يستنكف من قول لاأدرى بل يعترف بصدق قوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وقسم) علمه بالاجتهاد والظن فيدفعه عن نفسه ويحيله على غيره اذا لم يكن متعينا هكذا كانت سيرة الصحابة وعلماء السلف رضى الله عنهم (أما) التسرع الى الفتوى والتشوق الى ان يكون هو المسؤل فدلالة على طلب الجاه (ففي) الخبر ان العلم ثلاثة كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدرى (وقال) الشعبى لاأدرى نصف العلم ومن سكت لله حيث لايدرى فليس أقل أجرا ممن نطق لان الاعتراف بالجهل أشد على النفس (وكان) ابن عمر رضى الله عنهما اذا سئل عن الفتوى قال اذهب الى الامير الذى تقلد أمور الناس فضعها في عنقه (وقال) ابن مسعود رضى الله عنه ان الذى يفتى الناس في كل مايستفتونه لمجنون (وقال) جنة العالم لاأدرى فاذا أخطأ أصيب مقاتله ومر على وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقالا هذا يقول اعرفونى وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسئل عن أمور فيقول لاأدرى الى أن ينزل جبريل عليه السلام فيبين له وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة وكان في الفقهاء من يقول لاأدرى أكثر من يقول أدرى منهم سفيان ومالك واحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحارث وجماعة وقال عبد الرحمن ابن ابى ليلى ادركت في هذا المسجد مائة وعشرين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم من احد يسأل عن فتوى الاود ان اخاه كفاه ذلك وكانت المسئلة تعرض على احدهم فيردها الى آخر ويرد الآخر الى آخر حتى تعود الى الاول كذلك كانوا يتدافعون حذارا من خطر الفتوى وكان قد اهدى الى واحد من أصحاب الصفة رأس مشوى وهو في غاية الضر فقال أخى فلان أولى به فبعثه اليه وبعثه ذلك الى آخر ودار على جماعة منهم حتى عاد الى الاول بعد سبعة فانظر الآن كيف صار المطلوب مهروبا عنه والمهروب عنه

مطلوبا وقال بعضهم كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء الامامة والوديعة والوصية والفتوى وصار الناس يحذبون الآن هذه الاربعة (سابعها) ان يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طريق الآخرة وتوقع انكشاف ذلك من المجاهدة فان المجاهدة مبدأ المشاهدة قال الله تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) فبالمجاهدة والجلوس مع الله في الخلوة مع تطهير القلب عن شواغل الدنيا تنكشف دقائق علوم الدين وتتفجر ينابيع الحكمة من القلب من غير عد ولاحصر (فتصفية) القلب والجلوس في الخلوة مع الله تعالى هو مفتاح الالهام ومنبع الكشف فكم من متعلم طال تعلمه ولا يقدر على مجاوزة مسموعه وكم من مقتصر في تعلمه على المهم متوفر على مراقبة القلب وقد فتح الله تعالى عليه من لطائف الحكم ماتحار فيه عقول ذوى الالباب ولذلك (قال) صلى الله عليه وسلم من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم وقال الله تعالى (ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فالمخرج من الظلمات والظفر بالرزق من المعارف مبدؤه التقوى (وفي بعض) الكتب السالفة من قول الله تعالى يا بنى اسرائيل لاتقولوا العلم في السماء من ينزل به ولا في تخوم الارض من يصعد به ولا من وراء البحار من يعبر فيأتى به العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدى بآداب الروحانيين وتخلقوا الىّ باخلاق الصديقين أظهر العلم من قلوبكم حتى يغطيكم ويغمركم ولولا ان النور الباطن في القلب مستول وحاكم على العلم الظاهر لما (قال) صلى الله عليه وسلم استفت قلبك وان أفتاك المفتون (وقد قال) الله تعالى لايزال العبد يتقرب الىّ بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت له سمعا وبصرا* فكم من الفرق بين من يسمع به ويبصر به وبين من يسمع ويبصر ويجتهد وينظر بقوته ونفسه وعن هذا المعنى عظم علماء الظاهر أرباب القلوب (وكان) الشافعى رضى الله عنه يجلس بين يدى شيبان الراعى ولم يكن من العلماء بعلم الظاهر فقيل للشافعى مثلك يجلس بين يدى هذا العجمى فقال ان هذا وفق لما علمناه (وكان) أحمد بن حنبل ويحيى بن معين يختلفان كثيراً الى معروف الكرخى ولم يكن في علم الظاهر بمثابتهما فلنقتصر من هذه العلامات على ماذكرناه فقد ذكرنا بقيتها في كتاب الاحياء فتطلب منه

(فصل) وبالحرى ان نذكر في هذا المقام نبذة من سيرة أئمة المذاهب ليعلم المقتدون بهم ان شرفهم وعلو درجتهم ومكانتهم عند الله لم يكن بمجرد العلم الظاهر والتوسع في تفاريع المسائل الفقهية بل لكونهم من علماء الآخرة جامعين لعلاماتها متأسين فيها بالصحابة والتابعين

والسلف الصالحين ونبين ان كل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة وفقيها
في مصالح الخلق ومعاملات الدنيا ومريدا بفقهه وجه الله تعالى فهذه خمس خصال
اتبعهم فقهاء الفرق من جملتها على خصلة واحدة وهى التشمر والمبالغة في تفاريع الفقه
لأن الخصال الاربع لا تصلح الا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا
والآخرة أيضا ان أريد بها الآخرة فلصلاحها للدنيا تشمروا لها وادعوا بها مشابهة
أولئك الائمة وزعموا ان من طعن فينا فقد طعن فيهم وطعن في العلماء وفي العلم وهيهات
فلا تقاس الملائكة بالحداديين بل هم في القيامة أول خصومهم وخصوم أتباعهم الذين
انتسبوا اليهم وانتحلوا مذاهبهم ولم يسلكوا مسلكهم ونحن نورد من أحوالهم في هذه الخصال
مايستحى المدعون لانتحال مذاهبهم ان انصفوا أنفسهم (أما) الشافعي رضى الله عنه
فيدل على كونه عابدا ماروى انه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء ثلثا للعلم وثلثا للصلاة وثلثا
للنوم وقال الربيع بن سليمان كان الشافعي يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في
الصلاة وكان البويطي أحد أصحابه وكان يختم القرآن كل يوم مرة وقال الحسين الكرابيسي
بت مع الشافعي غير ليلة فكان يصلي نحوا من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية
فاذا أكثر فمائة وكان لايمر على آية رحمة الا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المؤمنين ولا
على آية عذاب الا تعوذ منها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين فكانما جمع له الرجاء والرهبة
معا فانظر كيف يدل اختصاره على خمسين آية على تبحره في أسرار القرآن وتدبره فيها
وقال الشافعي ماشبعت منذ ست عشرة سنة لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب
ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة فانظر الى حكمته في ذكر
آفات الشبع ثم في جده في العبادة اذا طرح الشبع لاجلها ورأس التعبد تقليل الطعام
فانت تدعى متابعة الشافعي ولا تترك الشبع قط اقتداء بمذهبه وانما تطول النزاع في ان
الوتر ينبغى أن يكون منفصلا لا متصلا وتعلم مقدار التفاوت بين الاتصال والانفصال وانه
هين في الدين والتفاوت بين الشبع وبين تقليل الطعام في تهيئة أسباب السعادة والشقاوة
لايدخل تحت الحصر وأنت لاتلتفت اليه والشيطان ياتى اليك أن تعصبك في الوتر وافراد
الاقامة لله تعالى لا للتعصب وكذلك جميع مسائل الخلاف فانت منخدع بتابيسه
ومغتر به وقال الشافعي ماحلفت بالله عزوجل لاصادقا ولا كاذبا فانظر الى حرمته
وتوقيره لله تعالى ودلالة ذلك على علمه بجلال الله تعالى وسئل الشافعي عن مسئلة
فسكت فقيل له ألا تجيب فقال حتى انظر الفضل في السكوت أو في الجواب فانظر الى

ضبطه للسانه مع انه أشد الاعضاء تسلطا على العلماء وبه يعلم انه كان لا يسكت ولا يتكلم الا لله وقال الشافعي كتب حكيم الى حكيم انك قد أوتيت علما فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم وأما زهده فقد قال الشافعي من ادعى انه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب وقال الحميدى خرج الشافعي الى اليمن مع بعض الولاة وانصرف الى مكة بعشرة آلاف درهم وضرب خباءه خارج مكة فكان الناس يأتونه فما برح من موضعه حتى فرقها كلها وخرج مرة من الحمام فاعطى الحمامى مالا كثيرا وسقط سوطه مرة من يده فرفعه اليه انسان فأعطاه خمسين دينارا وسخاوة الشافعي أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء فليس الزهد عبارة عن فقد المال بل عن فقد علاقة القلب معه فلا تظن ان سليمان في ملكه لم يكن زاهدا في الدنيا بل كان يأكل خبز الشعير ويطعم الخلق لذائذ الاطعمة وهذا أشد من الزهد مع خلو اليد عن المال بل الزاهد من المال عنده كالماء ولو كان على شط البحر وهو قادر عليه لم يضره ذلك لانه يعده لحاجات المسلمين ولا يكون لقلبه معه علاقة فلو كان بدل الماء المشروب طعاما لكان المطعوم عنده كالمشروب وقد أتينا على تحقيق ذلك في بحث الزهد من كتاب احياء العلوم (وروى) ان سفيان بن عينة روى حديثا من الرقائق فغشى على الشافعي فقيل له قد مات فقال ان مات فقد مات أفضل أهل زمانه وروى عن عبد الله بن محمد البكرى قال كنت أنا وعمر بن نباتة جلوسا نتذاكر العباد والزهاد فقال لى عمر مارأيت أورع ولا أفصح من محمد بن ادريس الشافعي خرجت أنا وهو والحارث بن لبيد الى الصفا فافتتح الحارث يقرأ وكان حسن الصوت (هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون) فرأيت الشافعي قد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطرابا شديدا وخر مغشيا عليه فلما أفاق جعل يقول أعوذ بك من مقام الكذابين واعراض الغافلين اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك هيبة المشتاقين إلهى هب لى جودك وجللنى بسترك واعف عن تقصيرى بكرم وجهك قال ثم قمنا وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقعدت على الشط أتهيأ للصلاة اذ مر بى رجل فقال ياغلام أحسن وضوءك أحسن الله اليك في الدنيا والآخرة فالتفت فاذا أنا برجل يتبعه جماعة فاسرعت في وضوئى وجعلت أقفو أثره فالتفت الىّ فقال هل لك حاجة فقلت نعم تعلمنى مما علمك الله تعالى شيأ فقال لى اعلم ان من صدق الله نجا ومن أشفق على دينه سلم من الردى ومن زهد في الدنيا

قرت عيناه بما يرى من ثواب الله تعالى غدا أفلا أزيدك قلت بلى قال من كان فيه
ثلاث خصال فقد استكمل الايمان من أمر بالمعروف وائتمر ونهى عن المنكر وانتهى
وحافظ على حدود الله تعالى ألا أزيدك قلت بلى قال كن في الدنيا زاهدا وفي الآخرة
راغبا وأصدق الله في جميع أمورك تنج مع الناجين ثم مضى فسألت من هذا فقالوا
الشافعى فانظر الى حالته ومقالتـه وحكمته أيخرج هذا من ربع النكاح والجراح
أو من علوم الآخرة المستفادة من الكتاب والسنة (وأما) كونه عالما بأسرار القلب وعلوم
الآخرة فتعرفه من الحكم المأثور عنه (روى) انه سئل عن الرياء فقال على البديهة
الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا اليها بسوء اختيار النفوس
فاحبطت أعمالهـم وقال الشافعى اذا أنت خفت على عملك العجب فاذكر رضا من
تطلب وفي أى نعيم ترغب ومن أى عقاب ترهب وأى عافية تشكر وأى بلاء تذكر
فانك اذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك فانظر كيف ذكر
حقيقة الرياء وعلاج العجب وهمـا من كبار آفات القلب وقال الشافعى من لم يصن
نفسه لم ينفعه علمه وقال من أطاع الله بالعلم نفعه سره (وأما) ارادته بالفقه خاصة وبالمناظرة
فيه وجه الله تعالى فيدل عليه ماروى عنه انه قال وددت ان الناس انتفعوا بهذا العلم
وما نسب الىّ منه شئ فانظر كيف أطلع على آفة العلم وطلب الاسم به وكيف كان
منزه القلب عن الالتفات اليه متجرد النية فيه لوجه الله تعالى وقال الشافعى ماناظرت
أحدا قط فاحببت أن يخطئ وقال ماكلمت أحدا قط الا أحببت أن يوفق ويسـدد
ويعان ويكون عليه رعاية من الله عز وجل وحفظ وقال ما كلمت أحدا قط وأنا أبالى أن
يبين الله الحق على لسانى أو على لسانه وقال ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلهما
الا هبتـه واعتقدت مودته ولا كابرنى على الحق أحـد ودافع الحجة الا سقط من
عينى ورفضته (فهذه) العلامات هى التى تدل على ارادته الله بالفقه والمناظرة فانظر
كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على واحدة ثم كيف خالفوه فيها أيضا
ولهذا قال أبو ثور مارأيت ولا رأى الراؤون مثل الشافعى وقال أحمد بن حنبل ماصليت
صلاة منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعى فانظر الى انصاف الداعى والى درجة
المدعو له وقس به الاقران والامثال من العلماء في هذه الاعصار وما بينهم من المشاحنة
والبغضاء لتعلم تقصيرهـم في دعوى الاقتداء بهؤلاء ولكثرة دعائه له قال له ابنه اى
رجل كان الشافعى حتى تدعو له كل هذا الدعاء فقال أحمد بن حنبل يابنى كان الشافعى

كالشمس للدنيا وكالعافية للناس فانظر هل لهذين من خلف وقال أحمد ماأحد يمشى ويده محبرة الا وللشافعى في عنقه منة

وأما مالك فانه كان متحليا بهذه الخصال الخمس فانه سـئل ما تقول يا مالك في طلب العلم فقال حسن جميل ولكن انظر الذى يلزمك من حين تصبح الى حين تمسى فالزمه وكان مالك رحمه الله في تعظيم علم الدين مبالغا حتى كان اذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمكن من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث فقيل له في ذلك فقال أحب ان أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا التوقير يدل على معرفته بجلال الله تعالى وأما ارادته وجه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله الجدال في الدين ليس بشئ ويدل عليه قول الشافعى انى شهدت مالكا وسئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في اثنين وثلاثين منها لاأدرى ومن يريد غير وجه الله تعالى بعلمه فلا تسمح نفسه بان يقر على نفسه بانه لايدرى وروى ان ابا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملاء من الناس ليس على مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ان الرشيد سأله فقال هل لك دار فقال لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال اشتربها داراً فاخذها فلم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك ينبغى ان تخرج معنا فانى عزمت ان أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال له اما حمل الناس على الموطأ فليس الى ذلك سبيل لان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الامصار فحدثوا فعند أهل كل مصر علم (وقد) قال عليه الصلاة والسلام اختلاف أمتى رحمة وأما الخروج معك فلا سبيل اليه (قال) عليه الصلاة والسلام المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون (وقال) المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد وهذه دنانيركم كما هى ان شئتم فخذوها وان شئتم فدعوها يعنى انك انما تكلفنى مفارقة المدينة لما اصطنعته لدىّ فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما حملت اليه الاموال الكثيرة من الاطراف فرقها ولم يمسك ودل سخاؤه على زهده ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعى انه قال رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر مارأيت أحسن منها فقلت له ماأحسنها فقال هى هدية منى اليك ياأبا عبدالله فقلت دع لنفسك منها دابة تركبها فقال انى استحيي من الله تعالى أن اطأ تربة فيها نبي

الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة فانظر الى سخاوته وتعظيمه وأما ارادته وجه الله فيدل عليه انه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لى ياأبا عبد الله ينبغي ان تتخاف الينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال قلت أعز الله الامير ان هذا العلم منكم خرج فان أنتم أعززتموه عز وان أنتم اذللتموه ذل فان العلم يؤتى ولا يأتى فقال صدقت اخرجوا الى المسجد حتى تسمعوا الحديث مع الناس

وأما أبو حنيفة رحمة الله عليه فيدل على كونه عابداً ماروى عن ابن المبارك رحمه الله انه قال كان أبو حنيفة رحمه الله له قراءة وكثرة صلاة وأما علمه فلا يخفى على أحد وروى حماد بن أبى سليمان انه كان يحيي الليل كله وروى انه كان يحيي نصف الليل فاشار اليه انسان وهو يمشي وقال هذا هو الذى يحيي كل الليل فلم يزل بعد ذلك يحيي كل الليل وقال انا استحيي من الله تعالى ان أوصف بما ليس في من عبادته وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بابى حنيفة عليه فاراده على بيت المال فابى فضربه عشرين سوطا فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب وروى انه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك فقال أتذكرون رجلا عرضت عليه الدنيا بحذافيرها فابى وفر منها وروى انه قيل لابى حنيفة رحمه الله قد أمر لك أبو جعفر أمير المؤمنين بعشرة آلاف درهم قال فما رضى أبو حنيفة رحمه الله فلما كان في اليوم الذى توقع ان يؤتى بالمال صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم فجاء رسول الحسن بن قحطبة بالمال فدخل عليه فلم يكلمه فقال من حضر لايكلمنا الا بالكلمة بعد الكلمة أى هذه عادته فقال ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ثم أوصى أبو حنيفة رحمه الله بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه اذا مت ودفنتموني فخذ هذه البدرة واذهب بها الى الحسن بن قحطبة وقل له هذه وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة رحمه الله قال ابنه ففعلت ذلك قال الحسن رحمة الله على أبيك لقد كان شحيحاً على دينه وروى انه دعى الى ولاية القضاء فابى وقال لا أصلح له قيل لم قال ان كنت صادقاً فلا أصلح له وان كنت كاذباً فالكاذب لايصلح للقضاء وأما علمه بامور الآخرة وطرق الدين ومعرفته بالله تعالى فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا قال شريك النخعي كان أبو حنيفة رحمه الله طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس وهذا من أوضح الدلالات على علم الباطن والاشتغال بمهمات الدين

وأما أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله فورعهما مشهور وكلماتهما في أسرار العلوم وآفات النفوس والاعمال مشهورة وهي أكثر من أن تحصى ويعرف ذلك من كتاب حلية الاولياء

وقد أكثرنا الرواية عنهم في كتاب الاحياء فانظر الآن في سيرة هؤلاء الائمة وتأمل أحوال متبعيهم وانظر ان هذا الزهد والمعرفة يثمرها علم المعاملات والخصومات أم أنواع أخر من العلم أعرض الناس عنها واستغرقوا العمر بما يتعلق بمعاملات الخلق لما فيه من كسب الجاه والمال والله أعلم

الباب الرابع في اقسام العلوم

وماهومهم وماليس بمهم وينقسم غير المهم الى المباح والمذموم وينقسم المهم الى فرض العين وفرض الكفاية وفيه فصول

الفصل الاول في أقسام العلوم

فنقول العلوم تنقسم الى شرعية وغير شرعية ونعني بالشرعية مايستفاد من الانبياء عليهم الصلاة والسلام مما لا يرشد اليه العقل كالحساب ولا التجربة كالطب ولا السماع كاللغة وهي أعني الشرعية وهي المقصود بالبيان تنقسم الى أصول وفروع ومقدمات ومتممات وهي أربعة أضرب الضرب الاول الاصول وهي أربعة كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجماع الامة وآثار الصحابة والاجماع أصل من حيث انه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثانية وكذلك الاثر أيضا فانه يدل على السنة لان الصحابة شاهدوا الوحي والتنزيل وادركوا بقرائن الاحوال ماتضيق العبارة عن نقله فرأى بعض العلماء لذلك الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم وذلك على شرط مخصوص وفي موضع مخصوص وليس هذا موضع بيانه الضرب الثاني الفروع وهو مافهم من هذه الاصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول فاتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ غيره كما فهم من قوله صلى الله عليه وسلم لا يقض القاضي وهو غضبان انه لايقضي اذا كان حاقنا أو جائعا وهذا على ضربين أحدهما مايتعلق بمصالح الدنيا ويحويه فن الفقه والمتكفل به الفقهاء والثاني مايتعلق ببيان سلوك طريق الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المذمومة والمحمودة وماهو مرضي عند الله تعالى وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الآخر من كتاب احياء علوم الدين أعني ربع المهلكات وربع المنجيات ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها وهو الذي يحويه الشطر الاول منه الضرب الثالث المقدمات وهو الذي يجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فانه آلة لمعرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله لا من حيث ذاته لكن من حيث نزلت الشريعة بهذه اللغة فتعين تعلمها لذلك ولو نزلت بلغة أخرى للزم تعلم تلك اللغة بل من الآلات علم كتابة الخط لكنه ليس ضروريا اذ الحفظ قد

يستقل به فقد كان صلى الله عليه وسلم أمياً ولكنه بحكم العجز في الغالب أيضاً صار ضروريا الضرب الرابع المتممات وذلك في علم القرآن مثلا ينقسم الى مايتعلق باللفظ كعلم القراءة ومخارج الحروف والى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير المنقول فان اللغة بمجردها دون النقل لاتستقل به والى مايتعلق باحكامه كمعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر وكيفية استعمال البعض منه مع البعض وهو العلم الذى يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضا وأما المتممات في الاخبار والآثار فكالعلم بالرجال وأساميهم وأسامى الصحابة وصفاتهم والعلم بالعدالة وأقوال الرواة ليتميز الصحيح عن السقيم فهذه أقسام العلوم الشرعية ومراتبها

﴿ الفصل الثانى في بيان فروض الاعيان من جملة العلوم ﴾

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة واتفقت الامة على ان من العلوم ماهو فرض عين على كل مسلم واختلفوا في تعيينه وتحزبوا فيه أكثر من عشرين حزبا ولانطول بنقل التفصيل ولكن حاصله ان كل فريق نزل الوجوب على العلم الذى هو بصدده ولم تسمح نفسه بان يكون العالم القائم باهم العلوم غيره والاهم ماهو فرض العين لامحالة فقال المتكلمون هو علم الكلام اذ به يحصل معرفة الله تعالى وصفاته وبه يصح الايمان وقال الفقهاء هو علم الفقه اذ به تعرف العبادات والحلال والحرام في المعاملات وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة فانهما مبدأ معارف العلوم الدينية وقال المتصوفة المراد به علمنا فقال بعضهم هو علم العبد بحاله ومقامه من الله تعالى وقال بعضهم هو العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتميز لمة الملك عن لمة الشيطان وقال أبو طالب المكى في قوت القلوب هو العلم بمبانى الاسلام الخمسة المذكورة في قوله عليه الصلاة والسلام بنى الاسلام على خمس لان هذه هى الواجبات من الاعمال فيجب علمها ونحن نكشف الغطاء عن هذه المسئلة بما لا يستريب فيه محصل ولا يبقى للخلاف معه وجه فنقول العلم ينقسم عندنا الى علم مكاشفة كما سيأتى بيانه والى علم معاملة ونظرنا الآن في علم المعاملة والمعاملة التى كلف بها العبد المكلف ثلاثة أقسام اعتقاد وفعل وترك فاذا بلغ الرجل بالاحتلام أوالسن ضحوة النهار مثلا فاول واجب عليه تعلم كلمتى الشهادة وفهم معنى قوله لا إله الا الله محمد رسول الله وليس عليه ان يحصل ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الادلة بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع وقد اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب

بمجرد التصديق ولم يشغلهم بتعلم الادلة المحررة فاذا فعل ذلك فقد أدى فرض الوقت وكان العلم الذى هو فرض عينه ذلك وليس عليه أمر وراء هذا في الوقت بدليل انه لو مات عقيبه مات مؤمناً ولم يمت عاصيا وانما يجب غير ذلك على الشخص بأمر عارض وليس ذلك العارض ضروريا في حق كل شخص وذلك العارض إما أن يكون في الفعل أو في الترك أوفي الاعتقاد اما الفعل فبان يعيش من ضحوة النهارالى وقت الظهر فيتجدد عليه وجوب علم الطهارة والصلاة لتجدد وجوبهما فان عاش الى رمضان تجدد وجوب علم الصوم وانه يجب النية والامساك عن المفطرات وكيفيتهما وان كان له مال وتمت السنة وجب عليه علم الزكاة فان ملك النعم لم يلزمه علم زكاة النقد وان ملك النقد لم يلزمه علم زكاة النعم فاذادخلت أشهر الحج فلايلزمه المبادرة الى الحج ولا الى علمه لانه على التراخي ولكن على علماء الاسلام تنبيهه على ان في تأخيره خطر المعصية فربما يرى الحزم في المبادرة فيتعلم علم الحج ولا يلزمه الا تعلم أركانه وواجباته وأما نوافله فتعلم علمها نفل وليس بواجب وكذلك التدريج في علم سائر الاعمال وأما الترك فيجب علم ذلك بحسب مايتجدد من الاحوال وذلك يختلف بحال الشخص فلا يجب على الابكم تعلم مايحرم من الكلام ولا على الاعمى تعلم مايحرم من النظر ولو كان في الحال لابسا حريرا أوجالسا في دار مغصوبة فيجب تعلمه تحريم ذلك وتحذيره منه وكذلك ماليس ملابسا له ولكنه يتعرض له على القرب كالاكل فمهما كان في بلد يتعاطى فيه الخمر والخنزير فيجب تعليمه ذلك ويجب عليه تعلمه وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب تعلمها بحسب الخواطر فان خطر له شك في معنى كلمة التوحيد وجب عليه تعلم مايزيله فان لم يخطر بباله ذلك ومات قبل ان يخطر له ان كلام الله قديم وانه يجوز رؤيته الى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقدمات على الاسلام اجماعاً ولكن هذه الخواطر بعضها يخطر بالطبع وبعضهابالسماع من أهل البدع وان كان في بلد شاع فيه علم الكلام وتناظر فيه أهل البدعة فينبغى ان يصان في أول بلوغه عن ذلك بتلقين الحق لانه لو سبق الى سمعه الباطل أولا ربما علق به وعسر ازالته فمن علم العمل الواجب علم ان علم ذلك العمل واجب لكن في وقت وجوب العمل وماذكره الصوفية من فهم خاطر الشيطان ولمة الملك فهو أيضا حق لمن خطر له لانا نعلم ان الغالب ان الانسان لاينفك عن دواعى الشر والرياء والكبر والحسد والغضب والحقد فيلزمه ان يتعلم ماذكرناه في ربع المهلكات من كتاب احياء العلوم ما يرى نفسه محتاجا اليه وكيف لا يجب ذلك وقد (قال) صلى الله عليه وسلم ثلاث

مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه وماينفك الانسان عنها الا بالرياضة التامة الحقة وسائر الصفات المذمومة تتبع هذه المهلكات الثلاث وكلها مذمومة محرمة يجب تطهير القلب عنها ولا يمكن الحذر منها الا بعد معرفتها ومعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاجها اذ معنى العلاج مقابلة السبب بالضد فلا يعرف العلاج دون معرفة السبب ولا يعرف السبب دون حده وحقيقته وهو العلم الذى أودعناه ربع المهلكات وذلك من فروض الاعيان على كافة الخلق وقد أهملوا علمه وعمله ومنه عم الفساد فان القلب منزلته منزلة الراعي والجوارح رعاياه واذا فسد الراعي كيف يرجى صلاح الرعايا فعلم الاخلاق المحمودة والمذمومة من صفات القلب من أهم العلوم والحاجة اليه أهم الحاجات ومما ينبغي ان يبادر في القائه اليه اذا لم يكن قد انتقل من ملة أخرى الايمان بالجنة والنار والحشر والنشر والحساب والسؤال وبالجملة اليوم الآخر فانه تتمة كلمتي الشهادة فان المراد من تصديق الرسول تصديقه فيما ورد به ولم يرد الا بكلمة واحدة وهو ان من أطاع الله ورسوله فله الجنة ومن عصاه فله النار فبعد هذا التصديق يتعلم كيفية الطاعة ليعمل وماهية المعصية ليتجنب واذا تنبهت لهذا التدريج علمت ان كل عبد فهو في مجارى أحواله ليس ينفك عن لزوم علم من جملة العلوم وان لم يكن ذلك علما واحداً معيناً في جميع الاحوال ولجميع الاشخاص وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالالف واللام فقال طلب العلم فريضة ولم يرد به كل علم ولا علما معيناً لكن المراد به جنس العلم على الجملة والله أعلم بالصواب

الفصل الثالث فيما هو فرض كفاية من العلوم

اعلم ان العلوم الدينية التي ذكرناها من الاضرب الاربعة كلها من فروض الكفايات اذ آحادها قد تصير فرض عين على الآحاد على اختلاف الاحوال فيكون جملتها فرض كفاية على معنى انه لو خلى البلد عمن يقوم بعلم منها عم الحرج أهل البلد كافة لا سيما المتمكنون منه على يسر وهذه العلوم تجب على طائفة لا بعينها ولذلك قال الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة) كما قال في الأمر بالمعروف (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف) فالخطاب مع الجميع بان يكون منهم أمة ويخرج منهم فرقة فان خرجت فرقة سقط الحرج عن الجميع والا حرجوا ثم لايختص هذا بالعلوم الدينية بل يدخل فيه كل علم لاغنى للخلق عنه كعلم الطب الذى يحتاج اليه لعلاج المرضى وعلم الحساب الذى يحتاج اليه في قسمة المواريث والوصايا وعلم المساحة التى يحتاج اليها في قسمة الاراضى بل يتمدى

هذا الى الصناعات كالحياكة والزراعة والخبز والطحن حتى الحجامة مثلا من فروض الكفاية فلو خلى البلد عن الفصاد حرجوا (قال) رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجموا كيلا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم والذى أنزل الداء أنزل الدواء فلا يجوز التعرض للهلاك واهمال المداواة فاذا عرفت هذا فاعلم ان القيام بفرض الكفاية من علوم الدين من جملة العبادات الا ان من اشتغل به قبل الفراغ من فرض العين فقد تعرض لسخط الله تعالى كالذى وجب عليه رفع اليد عن وديعة طولب بها في الحال فقام واحرم بالصلاة ولو بالمكتوبة في أول الوقت فانه يعصى به لا لكونه مصلياً ولكن لتضمن صلاته ترك ماهو واجب على الفور ولكونه تاركا للترتيب في الواجبات كما يعصى من يسجد قبل الركوع في صلاته وان لم يعص بنفس السجود من حيث أنه سجود وفرض عين على كل شخص تطهير جوارحه عن المعاصى وتطهير قلبه عن الاخلاق المذمومة من الكبر والعجب والريا والحسد وغيره ثم اذا فرغ من فرض العين فلا بد من ترتيب في فروض الكفايات فالاشتغال بفرض كفاية قام بها جماعة واهمال فرض كفاية معطل لاقائم به لاوجه له أيضا بل ينبغى ان يقدم الاهم فالاهم ماهو في حرج بسببه وان لم يكن الحرج مختصا به ولكن كون غيره في الحرج والاثم لايخرجه عن كونه متعرضاً له

الفصل الرابع في بيان تفصيل علوم الآخرة

قد بينا ان العلوم تنقسم الى مايتعلق بمصالح الدنيا كعلم الفقه والى مايتعلق بسلوك طريق الآخرة ولعلك تحتاج الى تفصيل علوم الآخرة وان كنت مستغنيا عن معرفة تفصيل علوم مصالح الدنيا لاشتهاره ولاندراس علوم الآخرة واختفائه فاقول العلوم المتعلقة بسلوك طريق الآخرة تنقسم الى علم مكاشفة والى علم معاملة وأعنى بعلم المعاملة مايراد من علمه العمل وبعلم المكاشفة مايراد منه الكشف والمعرفة فقط دون العمل وعلم المكاشفة هو العلم الخفى الباطن وهو غاية العلوم ومقصدها بل هو المراد من جميع العلوم وجميع العلوم انما يراد للتوسل والتضرع بها اليه وهو العلم الذى به فضل أبو بكر سائر الصحابة رضى الله عنهم أجمعين حيث (قال) صلى الله عليه وسلم مافضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام ولكن بشىء وقر في صدره وهو العلم الذى قيل أنه مات تسعة أعشاره بموت عمر رضى الله عنه فقيل كيف يقول هذا وفينا جلة كبار الصحابة فقال لست أريد علم الفتوى والاحكام وانما أريد العلم بالله تعالى وهو الذى أراده النبى عليه الصلاة والسلام قال ان من العلم كهيئة المكنون لايعلمه الا أهل المعرفة بالله فاذا نطقوا به لم يجهله الا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً فان الله تعالى لم

يحقره اذ آتاه العلم وفيه قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى النصيب منه التصديق به وتسليمه لاهله وقيل من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق بهذا العلم وقد يتصور ان يتحقق بغيره من العلوم واقل عقوبة من ينكره ان لايرزق منه شيئاً وهو علم الصديقين والمقربين. وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة بالرياضة الصادقة ينكشف في ذلك النور حقائق أمور كان يسمع من قبل أسماءها ويتوهم لهامعانى مجملة غير متضحة فيتضح ذلك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وتعالى وبصفاته التامات وبافعاله العجيبة في خلق الارض والسموات وبحكمته في خلق الدنيا والآخرة ووجه ترتيبه للآخرة على الدنيا والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ووجه الحاجة الى ارسال الرسل ومعرفة رتبة النبي عليه السلام ونسبته الى رتبة الملائكة والى سائر الخلق وكيفية كونه واسطة بين الملائكة وبين الخلق وكيفية وصول الوحي اليهم من الملائكة وكيفية ظهور الملك لهم تارة في صورته الحقيقية وتارة في كسوة الامثلة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كثرة رؤيته لجبريل مارآه في صورته الحقيقية الامرتين ويتصل بمعرفة ذلك معرفة حقيقة القلب ووجه نسبته الى عالم الآخرة والملكوت بخاصية في ذاته تظهر تلك الخاصية عند ركود الحواس بالنوم حتى يطلع به على الغيب وعلى مافي المستقبل وهو غائب عن هذا العالم اذ كان في هذا العالم بواسطة الحواس وقد ركدت واذا انكشف تردد القلب بين العالمين انكشف معنى لمة الملك ولمة الشيطان وكيفية تصادم جنود الملائكة وجنود الشياطين في القلب فاذا عرفت حقيقة القلب وخواصه عرفت انه من عالم الآخرة والملكوت وانه غريب جوهره في هذا العالم وانه لم يسافر الى عالم الغربة الاللتزود. والاستعداد للرجوع الى مستقره ووطنه الاصلى الذى منه مبدؤه ومصدره واليه مرجعه ويتصل بمعرفة المرجع والمستقر معرفة حقيقة الآخرة وهي الجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب ومعنى قوله تعالى (وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) ومعنى لقاء الله تعالى والوصول اليه والنظر الى وجهه الكريم والنزول في جواره. ومعنى مرافقة الملاء الاعلى ومقارنة الملائكة والنبيين ومعنى تفاوت درجات أهل الجنة حتى يرى بعضهم بعضاً كما يرى الكوكب الدرى في جو السماء ومعنى (قوله) عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى يتجلى للناس عامة ولأبى بكر خاصة وبالجملة فهو معرفة جميع ماورد في ذات الله تعالى وفي صفاته وأفعاله وفي اليوم الآخر اذ للناس في معاني هذه الامور بعد التصديق باصولها

مقامات فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثـلة وأن الذى أعده الله تعالى لعباده الصالحين مالاعين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وانه ليس من الجنة مع الناس الا الصفات والاسماء ويكاد يتداعى هذا الى افراط في رفع الظواهر وبعضهم يرى ان حقائق جميعها هي المفهوم من ظواهرها ليس فيها كناية ولا امثال ولا يخلو هذا عن تفريط وتجاهل وانتساب الى مذهب الحشوية القريب رتبتهم من رتبة العوام وبعضهم يرى ان بعضها أمثـلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ويرى بعضـهم ان منتهى معرفـة الله تعالى الاعتراف بالعجز عن معرفتـه وانه لايعرف الله الا الله وبعضهم يدعى لنفسـه أموراً عظيمة كالاتحاد والحلول وأنواع من الهزيانات وبعضهم يقول منتهى معرفة الله مايعتقده العوام من أنه موجود عالم قادر سميع بصـير متكلم فنعنى بعلم المكاشفة ان يرتفع الحجاب عن قلبه حتى يتضح له جلية الحق في هذه الامور اتضاحا يجرى مجرى العيان الذى لاشك فيه وهذا ممكن في جوهر الانسان لولا ان مرآة القلب قد تراكم صداؤها وخبثها بقاذورات الدنيا واليه أشار صـلى الله عليـه وسلم حيث (قال) لولا ان الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا الى ملكوت السماء واليه الاشارة بما أوردناه من وحيه تعالى الى بعض الانبياء لاتقولوا العلم وراء البحار من يعبر يأت به وانما العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بآداب الروحانيين الحديث كما سبق فهذا الجنس هو المراد بعلم المكاشفة ولا سبيل اليه الا بعد إحكام علم المعاملة ولا يكفى في علم المعاملة دون المعاملة ومعنى المعاملة تصقيل مرآة القلب عن كدورات الدنيا وخبائث الاخـلاق وظلمات الشهوات التى هي الحجاب عن الله تعالى وعن معرفة صـفاته وأفعاله فبقدر ماتصقل مرآة القلب وتنجلى عن الخبث ويحاذى به شطر الحق يتلألأ فيه حقائقه كما يتلألأ في المرآة المجلوة صورة السماء مثـلا اذا حوذى بها نحوها ولا سبيل اليه الا بالرياضة ومعنى الرياضة تزكية القلب عن الصفات المذمومة وتحليته بالصفات المحمودة وقد أودعنا هذا العلم الشطر الاخير من كتاب الاحياء وهو ربع المهلكات وربع المنجيات ولعلك الآن تحب ان تسمع تراجم هـذه الصفات لتطلع على جمل هـذا العلم أعنى علم المعاملة كما أطلعت على بعض تراجم علم المكاشـفة (فاقول) علم المعاملة يرجع الى معرفة أحوال القلب اما مايحمد منها فكالصبر والشكر والخوف والرجاء والرضاء والزهد والتقوى والقناعة والسخاوة ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الاحوال والاحسان وحسـن الظن وحسـن الخلق وحسـن المعاشرة

والصدق والاخلاص فمعرفة حقائق هذه الاحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكتسب واضدادها التي تبطلها وآثارها حتى تجتنب وعلاماتها وعلاج ماضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة واما مايذم فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحسد والحقد والغش وطلب العلو وحب الثناء وحب طول البقاء في الدنيا للتمتع والكبر والرياء والانفة والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والرغبة والبذخ والاشر والبطر وتعظيم الاغنياء والاستهانة بالفقراء والفخر والخيلاء والمناقشة والمباهاة والاستكبار عن الحق والخوض في الباطل وفيما لايعني وحب كثرة الكلام والصلف والتزين للخلق والمداهنة والعجب والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس وزوال الحزن عن القلب وخروج الخشية وشدة الانتصار للنفس اذا نالها الذل وضعف الانتصار للخلق واتخاذ اخوان العلانية على عداوة السر والامن من مكر الله تعالى في سلب ماأعطى والاتكال على الطاعة والمكر والخيانة والمخادعة وطول الامل والقسوة والفظاظة والفرح بالدنيا والاسف على فواتها والانس بالمخلوقين والوحشة بفراقهم والجفا والطيش والعجلة وقلة الحياء وقلة الرحمة فهذه وأمثالها من صفاة القلب مغارس الفواحش ومنابت الاعمال المحظورة وأضدادها وهي الاخلاق المحمودة منبع الطاعات فالعلم بحدود هذه الامور وحقائقها وأسبابها وعلاجها هو علم طريق الآخرة وهو فرض عين في فتوى علماء الآخرة والمعرض عنه هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة كما ان المعرض عن الاعمال الظاهرة هالك بسطوة سلاطين الدنيا بحكم فتوى فقهاء الدنيا ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الاخلاص والرياء وما هو مبتلى به في جميع الاوقات لم يعرفه وربما حفظ تفاريع نادرة في الطلاق والجراح مما لايحتاج اليه الا نادراً

الفصل الخامس في بيان العلم الاقصى وبيان نسبة العلوم اليه بالموازنة بمثال لكي تعرف مراتب العلوم فلا تؤثر الادنى على الارفع والتابع على المتبوع

اعلم ان العزيز والرفيع انما يكون عزيزاً بالاضافة اليك والى مايهمك ولايهمك الا شأنك في الدنيا والآخرة فاذا لم يمكن الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وهو قوله (اذهبتم طيباتكم) وشهد من نور البصائر مايجري مجرى العيان فالاهم مايبقى أبد الآباد وهي السعادة الابدية وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركباً والاعمال سعياً الى المقصد ولا مقصد الالقاء الله تعالى ففيه النعيم كله وان كان لايدرك في هذا العالم قدره الا الاقلون وأنعم بالاضافة الى سعادة لقاء الله تعالى والنظر الى وجهه

الكريم على ثلاث مراتب تفهمها بالموازنة بمثال وهو ان العبد الذى علق عتقه وتمكينه من الملك على الحج وقيل له ان حججت وأتممت وصلت الى العتق والملك جميعاً وان ابتدأت بطريق الحج والاستعداد له وعاقك في الطريق عائق ضرورى فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك وله ثلاثة أصناف من الشغل (الاول) تهيئة الاسباب كشراء الناقة وخرز الراوية وإعداد الزاد والراحلة (والثانى) السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه الى الكعبة منزلا بعد منزل (والثالث) الاشتغال باعمال الحج ركناً بعد ركن ثم بعد الفراغ من الاركان يستحق العتق والتعرض للملك والسلطنة وله في كل مقام منازل من أول إعداد الاسباب الى آخرها ومن أول سلوك البوادى الى آخرها ومن أول أركان الحج الى آخرها وليس قرب من ابتدأ باركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتدأ بالسلوك بل قرب من قرب من الفراغ منه فالعلوم أيضا ثلاثة أقسام (قسم) يجرى مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الناقة وهو كعلم الفقه أعنى مايتعلق منه بمصالح معاملات الخلق (وقسم) يجرى مجرى سلوك البوادى وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التى عجز عنها الاولون والآخرون واحدى عقباتها البخل وحب المال. وعنه العبارة بقوله تعالى (وما أدريك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم) الآية ولا حجاب بين العبد وبين الله تعالى الا هذه العقبات التى هى صفات القلب وتحصيل علمه كتحصيل علم طريق الحج ومنازله وكما لا يغنى علم المنازل وطرق البوادى دون سلوكها ولا يغنى حفظ الادوية وكيفية طبخها دون شربها فكذلك لا يغنى علم تهذيب الاخلاق دون مباشرة التهذيب لكن المباشرة دون العلم غير ممكن (وقسم) ثالث يجرى مجرى نفس الحج وأركانه وهو من كتاب الاحياء وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ماذكرناه في تراجم علم المكاشفة يرجع الى العلم بالملك والملكوت فهذا هو العلم الاقصى وماعداه من العلوم توابع ومقدمات كلها تراد لهذا العلم وهذا العلم يراد لذاته لا لغيره فالسعادة الابدية معلقة بلقاء الله تعالى وهي معلقة بعلم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة الذى هو قطع عقبات الصفات وعلم قطع العقبات وراء علم سلامة البدن وانتظام أسباب المعيشة في الدنيا التى هى الزاد الى طريق الآخرة بالاجتماع والتعاون وحسن المعاملة مع الخلق الذى يتوصل به الى الملبس والمطعم والمسكن بالسلطان وقانون ضبط السلطان للناس على نهج العدل في المعاملة في ناصية الفقيه كما ان قانون ضبط اخلاط البدن على نهج الاعتدال في ناصية الطبيب ومن قال العلم علمان علم الابدان وعلم الاديان

أشار الى هذا العلم الظاهر المتعلق بمصلحة البدن وأسباب المعيشة (فان قلت) لم شبهت علم الفقه باعداد الزاد والراحلة فاعلم ان الله تعالى أخرج آدم من التراب واخرج ذريته من سلالة من ماء دافق وأخرجهم من الاصلاب الى الارحام ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ثم الى العرض ثم الى الجنة أو الى النار فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم وخلق الدنيا زاداً للمعاد ليتناولوا منها مايصلح للتزود فلو تناولوا منها قدر الزاد بالعدل لانقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات وضاقت أعيان الاموال والانفس عن الوفاء بجميع الشهوات فتولد منها الخصومات فمست الحاجة الى تمهيد قانون في بيان حدود الاختصاصات بالمنكوحات والمطعومات وسائر المطلوبات الدنيوية وهو العلم الذى يتولى الفقيه بيانه في ربع المعاملات والنكاح والجراح ومست الحاجة الى سلطان يسوسهم ويحملهم على الحدود الفاصلة للاختصاصات فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فالفقيه هو معلم السلطان ومرشده الى طريق سياسة الخلق لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ووجه تعلقه بالدين ان الدنيا منزل من منازل الآخرة بل هى مزرعة الآخرة ولا يتم الدين الا بالدنيا ولذلك قيل الدين والملك توأمان والدين أصل والسلطان حارس ومالا أصل له فمهدوم ومالا حارس له فضائع فمعلوم ان الحج لايتم الا ببذرقة تحرس من العدو في الطريق ولكن الحج شئ وسلوك الطريق الى الحج شئ آخر والقيام بالحراسة التى لايتم الحج الا بها شئ آخر ومعرفة طريق الحراسة وحيلها أمر آخر فالفقيه يتولى تعريف طرق التزود من الدنيا التى هى منزل من منازل الآخرة وانما المقصد الاقصى لقاء الله تعالى والساعى الى الله تعالى لينال قربه هو القلب ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس الذى تشارك فيه الميت والبهيمة بل سر أمن أسرار الله تعالى ولطيفة من لطائفه لايدركها الحس يعبر عنها تارة بالروح وأخرى بالنفس المطمئنة والشرع يعبر عنها بالقلب لانه المطية الاولى لذلك السر ولا رخصة في كشف الغطاء عن حقيقته الا أن يقال هو أمر شريف ربانى كما قال الله تعالى (قل الروح من أمر ربى) والمقصود ان هذه اللطيفة هى الساعية الى قرب الحضرة الربوبية واما البدن فمطيتها التى تركبها وتسعى بواسطتها لها في طريق الله تعالى كالناقة للبدن في طريق الحج فكل علم مقصده الاول مصالح البدن ومصالح معيشة البدن في الدنيا فهو علم بمصالح المطية ولا يخفى عليك ان علم الطب كذلك فانه يحتاج اليه في حفظ البدن ولا يمكن عبادة الله تعالى الا بقيام البدن وصحته فكذلك لايمكن الا بانتظام أسباب المعيشة ولا يتم ذلك الا بالاجتماع والتعاون وتصادم

فهرست كتاب فاتحة العلوم

صحيفة

الشهوات عند التنازع في الاغراض يفضى الى التقاتل الذى هو سبب الهلاك من خارج
كما ان تصادم الاخلاط في الباطن يفضى الى الهلاك من باطن وبعلم الطب يحفظ الاعتدال
في الاخلاط المتنازعة من داخل وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج
وعلم طريق الاعتدال في الاخلاط طب وعلم طريق اعتدال الاحوال بين الناس في
المعاملات والافعال فقه وهو متعلق بمصالح المطية في المنزل الاول من منازل الآخرة فمن
تجرد للفقه ولم يصلح نفسه بقطع عقبات الصفات وملازمة جادة التقوى في الاخلاق والاعمال
كمن تجرد لشرآء الناقة وعلفها وشرآء الراوية وخرزها ومستغرق العمر في دقائق الكلمات
التى تجرى في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الاسباب التى بها تستحكم الخيوط
لخرز الراوية للحج ونسبة هؤلاء من السالك لطريق اصلاح القلب أو الواصل الى علم
المكاشفة كنسبة أولئك الى سالكى طريق الحج أو ملابسى أركانه فتأمل هذا واقبل النصيحة
مجانا مما قام عليه ذلك غالياً ولم يصل اليه الا بعد جهد شديد وجرأة تامة على مباينة العامة
بالنزوع عن تقليدهم بمجرد الشهوة (فان قلت) لقد شبهت الفقه بالطب وهذا غاية الغض من
درجة الفقه والفقهاء (فاقول) حاشى لله أن أسوى بين العلمين في الشرف والرتبة لاوجه ثلاثة
أحدها ان الفقه علم دينى شرعى أى هو مستفاد من النبوة والطب علم حسىّ مستفاد من
التجربة والثانى ان الطب لايحتاج اليه الا مريض والفقه يحتاج اليه المريض والصحيح
بل لا يستغنى عنه أحد من سالكى طريق الآخرة فانه مقدمة من مقدمات سلوك
الطريق كما سبق والثالث ان علم الفقه مجاور العلم طريق الآخرة لانه نظر في أعمال
الجوارح ومصدر الاعمال ومنشأها صفات القلب فالمحمود من الاعمال يصدر عن
الاخلاق المحمودة المنجية في الآخرة والمذمومة تصدر من المذموم ولا يخفى اتصال
الجوارح بالقلب واما الطب فتصرف في تعديل المزاج ولا تعلق له بالامور الدينية
ولعلك تقول جعلت الفقه مجاوراً لعلم طريق الآخرة فهلا جعلته متعلقا بطريق الآخرة
مقصوداً فان المجاورة ان سلمت لك في أحكام الحدود والجراحات والغرامات وفصل
الخصومات فلا تسلم لك فيما يشتمل عليه الفقه من العبادات والصيام والصلاة والحلال
والحرام (فاقول) اعلم ان أقرب مايتكلم فيه الفقه من الاعمال التى هى أعمال الآخرة
ثلاثة الاسلام والعبادات والحلال والحرام فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت انه
لايجاوز حدود مصالح الدنيا الى الآخرة أما الاسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه ويفسد
وليس يلتفت فيه الا الى اللسان وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه بقول رسول الله
صلى الله عليه وسلم حيث (قال) هلا شققت عن قلبه بل يحكم الفقيه بصحة الاسلام تحت

ظلال السيوف مع انه يعلم ان السيف لم يكشف له عن شبهة ولم يرفع عن قلبه غشاوة الجهل ولكنه مستور عن صاحب السيف فان السيف يمتد الى رقبته واليد الى ماله ومعنى صحة اسلامه عند الفقيه انه يعصم ماله ورقبته ولذلك قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره عليه فقال فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم فهذا الاسلام يصح بالاضافة الى دمه وماله الذى يبقى معه الى الموت بحيث لامال ولا رقبة وذلك بعد الموت فلا ينفعه الا النور الذى به ينشرح الصدر للاسلام والفقيه لايتكلم في حقيقة ذلك النور ولافي أسبابه من تزكية القلب وتصقيله بالرياضة فان خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الطب والحساب ولم يكن باعتبار كونه فقيهاً وأما العبادات فالفقيه يفتى بصحتها اذا أتى بصورة الاعمال وان كان غافلا من أولها الى آخرها مترددا بافكاره في معاملات السوق ويكتفى بحضور القلب مع التكبير في الصلاة مثلا في لحظة وهذه الصلاة لاتنفع في الآخرة كبير نفع بل (قال) صلى الله عليه وسلم لايكتب للرجل من صلاته الا ماعقل منها وذلك بالخشوع واحضار القلب ودفع الوساوس عنه ولكن يريد بالصحة انه امتثل صيغة الامر بالصلاة فاندفع عنه سيف السلطان بالقتل وهو منوط بصورة الاعمال كما ان السيف في الكفر أيضاً منوط بصورة كلمة الاسلام باللسان واما الزكاة فينظر الفقيه فيها الى مايقطع طلب السلطان فربما يحكم ببراءة ذمته اذا أخذ السلطان منه قهرا ولا يخوض في بيان سر الزكاة وان مقصودها تطهير النفس عن رذيلة البخل فهى طهرة عنه ولذلك كانت الزكاة كغسالة النجاسة حتى رفع منصب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقاربه عنها وسماها أوساخ أموال الناس فالفقيه لايلتفت الى الوجه الذى به يكون اخراج الزكاة طهرة للقلب عن خبث البخل بل ربما أفتى بما يخالفه نظراً الى الظاهر الذى هو حده ودرجته في النظر فنقول مايحكى عن أبي يوسف رضى الله عنه انه كان يهب ماله في آخر السنة لزوجته وتهب مالها ليسقط الزكاة عنهما وهذا قد يستجيزه الفقيه ويستدل به على فقه نفسه وهو على التحقيق ضد مقصود الزكاة لان غرض الزكاة تطهير القلب عن وضر البخل وهذا يؤكد داعية البخل ويستمدها لان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يصف بالاهلاك الشح المطلق بل الشح المطاع وانما يصير مطاعاً بمثل هذه الحيل في دفع العبادات فيه يصير مهلكا والفقيه يكتفى به لانه ينظر الى الظاهر ويقول آمر باخراج الزكاة عما بقى في ملكه سنة وهذا الملك قد زال قبل انقضاء السنة فهذا نظره في الزكاة (وأما الحلال والحرام) فالورع فيه له أربع درجات (الاولى) ورع العدالة وهو الذى يخرج به الانسان عن أهلية الشهادة والقضاء وهو الاحتراز عن الحرام

الظاهر (والثانية) ورع الصالحين وهو التوقى من الشبهات ومظان الريب قال صلى الله عليه وسلم دع مايريبك الى مالا يريبك (الثالثة) ورع المتقين قال صلى الله عليه وسلم لايكون الرجل من المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس وذلك كالتورع عن حديث الناس خوفاً من الانجرار الى الغيبة وكالتورع عن أكل الشهوات خيفة من هيجان النفس والبطر (والرابعة) ورع الصديقين وهو الاعراض عما سوى الله تعالى وعن كل عمل ليس لله خالصاً وسيأتى تفصيل هذه الدرجات من بعد وجميعها خارج عن نظر الفقيه الا الدرجة الاولى وهو ورع العدول الذى هو مناط الشهادة والقضاء والقيام بمجرد ذلك لاينفى خطر الآخرة قال صلى الله عليه وسلم لوابصة استفت قلبك وان أفتوك وأفتوك وقال الأثم حواز القلوب والفقيه لايتكلم في جواز القلوب وان خلط ذلك بالفقيه كان كالو خالط النحو والحساب والطب فانه ربما مزج شيئا من ذلك بعلمه ولكن لايكون من نفس علمه ومقصودا به فهذا يعلم ان جميع نظر الفقيه يتعلق بالدنيا التى هى صلاح الآخرة لابنفس طريق الآخرة وليس ماذكره غضا من درجة الفقه والفقهاء في نفسه لكن بالاضافة الى العلم الذى نيط الفلاح به حيث قال الله تعالى (قد أفلح من زكاها وقال قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وابقى) فالعلم الذى به يحصل التزكية للقلب وملازمة الصلاة المقرونة بحضور القلب الذكر وايثار الآخرة التى هى أبقى على الدنيا المشرفة على الانقضاء أرفع من العلم الذى يتعلق بمصالح معيشة من يتزود لسلوك هذا الطريق فهذا على هذا الوجه ينبغى ان يفهم والله الهادى

الباب الخامس فى شروط المناظرة وآفاتها وبيان سبب اقبال الخلق عليها

اعلم ان الاعصار قد اختلفت في اقبال الخلق على أنواع العلوم فالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاها الخلفاء الراشدون وهم أئمة مستقلون بالفتوى كانوا لايستعينون بالفقهاء الا في وقائع نادرة وكان الاسلام في زمانهم على طراوته فلم يكن لهم رغبة في العلم الا لله تعالى فلا جرم كان اشتغالهم بمهمات الدين ومراقبة القلب وملازمة التقوى وطلب علم الحديث والقرآن للعمل والهداية لا للرواية فاقبلوا على الله تعالى بكنه هممهم فلما انقضى عصرهم تولى الخلافة أقوام لااستقلال لهم بعلم الفتاوى واتسعت الولاية فاحتاجوا الى القضاة والفقهاء المستقلين بالفتاوى والاقضية وكان قد بقى من علماء التابعين من هو على الطراز الاول في ملازمة صفو الدين فكانوا اذا طلبوا

هربوا فاضطر الخلفاء الى اكرامهم والالحاح في طلبهم فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء واقبال الخلفاء والولاة عليهم مع اعراضهم عنهم فاكبوا على طلب علم الفتوى توصلا الى نيل العز والجاه وكثرت الرغبة في علم المذهب واتسع بيداء العلم وأكب الناس عليه ثم عرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا اليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم فنهم من حرم ومنهم من أنجح ولم يخل المنجح عن ذل الطلب فاصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين وبعد ان كانوا أعزة بالاعراض والهرب أذلة بالتعرض والطلب الامن وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دينه فلم يخل عصر من الاعصار عن علماء بالله معرضين عن السلاطين وعن ولاياتهم وأموالهم لكن كان أكثر الاقبال في ذلك العصر على علم الفتاوى والاقضية وهو الذى نسميه الآن علم المذهب ثم نبغت نابغة المتكلمين من المعتزلة وغيرهم وظهر من الصدور والخلفاء من مال الى البحث عن العقائد والى التعصب فيه واقبلوا على من اشتغل بذلك العلم فاكب الناس على علم الكلام واكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات والمناقضات وزعموا ان غرضهم الذب عن دين الله تعالى والنضال عن السنة كما زعم من قبلهم ان غرضهم الاشتغال بالفتاوى ليتميز الحلال عن الحرام ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في أصول العقائد لما فيه من الفتنة فاعرض عن المتكلمين واقبل على التعصب للمذاهب في الفروع واقبل على من يناظر في الفقه وبيان الاولى من مذهب أبى حنيفة والشافعى خاصة فترك الناس الكلام واثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة خاصة وزعموا أنهم انما يفعلون ذلك لله تعالى وغرضهم استنباط دقائق الشرع وبيان مأخذ الاحكام وأكثروا فيه التصانيف والاستنباط ورتبوا طرق المجادلات واعرضوا عن الخلاف مع مالك وأحمد بن حنبل وسفيان مع انهم ايضا يخالفون من جهة الاحاديث والبحث عن معانى الاحاديث وما يصح منها ومالا يصح في مأخذ الاحكام ولكن كانت رغبتهم بحسب ميل الولاة والصدور واذ كان بهم التوسل الى الادرار والصلات والولايات فلم يشتغلوا الابما يروج عندهم ثم لم يسكتوا عن قولهم انه لاباعث لهم الا الدين واحياء الشرع ولو مالت نفوس أرباب الولايات الى الخلاف مع أحمد بن حنبل أو مع مالك لاشتغلوا بالبحث عن مذاهبهم ومناقضاتهم ولم يسكتوا عن دعواهم انا انما نطلب مأخذ الدين لله وفي الله فهكذا كان ترتيب الاعصار الى الآن ولا ندرى ماقدره الله تعالى فيما بعد من الاعصار فهذا هو الباعث على الاكباب على الخلافيات والمناظرة لاغير فقل ما ترى رجلا يتعلم الخلاف خوفاً من ان يقال له يوم القيامة لم لم تتعلم الخلاف وما من أحد الا

ويخاف ان يقال له يوم القيامة لم لم تخلص في علمك وعملك ولم راءيت الناس بطاعاتك
يافاجر ياغاوى يافاسق يامرائى كما ورد في الخبر ان المرائى ينادى بهذه الالقاب ومع ذلك
لايتعلم علم الاخلاص وطريق الحذر من الرياء وما يجرى هذا المجرى من صفات القلب
فانظر الآن من يتعلم لخوف الآخرة ما أهم مايشتغل به

بيان شروط المناظرة

اعلم ان المناظرة في أحكام الشرع من الدين أيضا ولكن لها شروط ووقت ومحل فمن
اشتغل به في وقته ومحله وقام بشرطه فقد اقتدى بالصحابة فانهم تشاوروا في مسائل
وبالسلف الصالحين كأبى حنيفة والشافعى ومحمد بن الحسن وغيرهم فانهم تناظروا في
مسائل وما تناظروا الا لله ولطلب ماهو حق عند الله ولكن لمن يتناظر لله وفي الله
علامات (الاولى) ان لايشتغل به وهو فرض كفاية الا بعد الفراغ عن فرض العين اذ
يكون مثاله كمن يترك الصلاة المفروضة ويشتغل بنسج الثياب يقول غرضى بذلك
ستر عورة من يصلى فيقال له كذبت لو أردت ذلك لصليت أولا بنفسك ثم نظرت
لصلاة غيرك (الثانية) ان لايرى فرض كفاية آخر أهم من المناظرة فان غرض المناظرة
طلب مأخذ الشرع لينال رتبة الاجتهاد وهذا من فروض الكفايات فان رأى فرض
كفاية معطلة لاقائم بها فلا يشتغل بما قام به جماعة وعلم الاحاديث في هذا العصر من
فروض الكفايات ولا قائم به وقد أشرف على الاندراس وهو أصل الدين فمن يهمل
ذلك ويزعم أنه يتعلم الخلاف لله فهو كمن رأى جماعة من العطاش مشرفين على الهلاك
وهو قادر على ان يسقيهم بماء يحييهم به فاشتغل بتعلم صناعة الحجامة وفي الحجامين كثرة
وزعم ان غرضه القيام بفرض الكفاية اذ لو خلا البلد عن الحجامين لتعرضوا للهلاك
ومن جملة فروض الكفايات التى لاقائم بها الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد يكون
المناظر في مجلس مناظرته مشاهدا للحرير ملبوسا ومفروشا وهو ساكت ويناظر في
دباغ جلد الكلب والتوضى بنبيذ التمر وذكاة الحمار وذلك مما لايتفق قط وهذه المعصية
قد اتفقت ووقعت بين يديه ولا يلتفت قلبه اليها البتة بل يجرى منه ومن غيره فى مجلس
المناظرة من الغيبة والايحاش والايذاء مايعصى به القائل والمستمع ولا يلتفت قلبه الى شئ
من ذلك ثم يزعم أنه يناظر لله فانظر هل كان مشاورة الصحابة ومناظرة السلف من
هذا الجنس فان لم يكن كذلك فلا تشبه نفسك بهم فلا تقاس الملائكة بالحدادين (الثالثة)
ان يكون المناظر مجتهدا يفتى برأيه لابمذهب غيره حتى اذا بان له الحق على لسان خصمه

انتقل اليه كذلك كان مناظرة السلف فاما من لايجتهد فليس له مخالفة صاحب مذهبه فاى فائدة له في المناظرة وهو لايقدر على تركه ان ظهر ضعفه ولو كانت مباحثته عن محل القولين والوجهين لكان أحرى وأنفع فانه ربما يفتى به ولكن يكون ميله الى الأصول لكثرة الكلام واتساع القول فيه حتى يجتهد في اسكاته وافحامه واظهار ضعف كلامه (الرابعة) ان يناظر في واقعة مهمة أوفي مسئلة قريبة من الوقوع وان يهتم بمثل ذلك فما خاض الصحابة في المشاورة الا بعد وقوع الواقعة ولم يخوضوا قبل الوقوع الا في الفرائض لعلمهم ان ذلك لابد من وقوعه على القرب ولا ترى المناظر يهتم بتمييز ماتعم به البلوى كطلاق السكران وتحليل الخمر وكون الخلع فسخاً أوطلاقاً عما لاتعم به البلوى من التوضى بنبيذ التمر ودباغ جلد الكلب وذكاة الحمار والبغل ثم ربما تركت المسئلة المهمة لانها خبرية لايطول الكلام فيها والمهم ان يبين الحق ولا يطول الكلام فيه فكيف يختار مايطول فيه الخصام على مايقصر فيه الكلام ولعله يقول غرضى الرياضة والامتحان وذلك يحصل بالمسائل الدقيقة القياسية فينبغى ان لايشبه نفسه بالصحابة والسلف فانهم ماناظروا للرياضة وما طلبوا تقوية الذهن بهذا الطريق بل بالتقوى والمجاهدة وتحصيل العلم النافع وسنذكر الرخصة فيه للرياضة ونذكر شرطه من بعد (الخامسة) ان تكون المناظرة في الخلوة أحب اليه منها في المحافل والصدور فان الخلوة أجمع للفهم وأحرى بصفاء الذهن ودرك الحق وفي حضور الجمع مايحرك دواعى الرياء والحرص على الافحام ولو بالباطل وأنت تعلم كسلهم عن الجواب في المسئلة في الخلوة وتنافيسهم في المسئلة في المحفل واحتيالهم في الاشتهار بها عند أهل المجمع (السادسة) ان يكون في طلب الحق كمنشد ضالة لايفرق بين ان يظهر على يده أو على يد غيره فيرى رفيقه معينا لاخصماً ويشكره اذا عرفه الخطاء وأظهر له الحق كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالة فنبهه غيره على ضالته في طريق آخر أليس كان يفرح به ويشكره فالحق ضالة المؤمن يطلبه كذلك فما باله اذا ظهر الحق على لسان خصمه خجل وأسود وجهه وأربدّ لونه واجتهد في مجاحدته ومدافعته بأقصى مايقدر عليه وأخذ يذم من أفحمه طول عمره ثم يشبه نفسه بالصحابة وقد ردت امرأة على عمر رضى الله عنه وهو في خطبته على ملاء من الخلق فقال صدقت أصابت امرأة وأخطأ رجل ورد آخر على على رضى الله عنه فقال أصبت وأخطأت وفوق كل ذى علم عليم وسئل أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه وكان أمير الكوفة عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال هو في الجنة وكان ابن

مسعود رضى الله عنه حاضراً فقال أعد على الامير فلعله لم يفهم فاعاد وأعاد الجواب فقال ابن مسعود وأنا أقول ان أصاب الحق فقتل فهو في الجنة فقال أبو موسى الاشعرى لاتسألونى عن شيء وهذا الحبر بين أظهركم ولو أعترض الآن بمثل هذا على أقل فقيه لانكر واستبعد وقال هذا لايحتاج الى ذكره فانه معلوم وان لم يذكر أوماىجرى هذا المجرى (السابعة) ان لايمنع معينه عن الانتقال من دليل الى دليل ومن سؤال الى سؤال بل يورد مايحضره ذكره كما يحضره ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل هكذا كان مناظرة أهل الدين فاما قوله هذا لا يلزمنى وقد تركت كلامك الاول وليس لك ذلك فهذا محض العناد بل الرجوع الى الحق أبداً يكون مناقضاً للباطل ويجب قبوله وأنت ترى المناظرات في المحافل تنقضى بمحض المجادلات حتى يقيس المستدل على أصل فيطالب بعلته فيذكرها فيطالب بالدليل على علة الاصل فيقول هذا ماظهر لى فان ظهر لك ماهو أولى منه فاذكره فيصير المعترض ويقول أعرفه ولا أذكره ولا يلزمنى ذكره ويقضى المجلس في الاصرار على هذا العناد وقوله اعرفه ولا يلزمنى ذكره مع سؤاله عنه كذب على الشرع فانه ان كان لايعرف وانما يذكره التعجيز خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بدعواه معرفة هو عاطل عنها وقصده افحام مسلم وتعجيزه وايذاؤه به وان كان صادقاً فقد فسق باخفائه ماعرفه من أمر الشرع وقد سأله أخوه المسلم عنه ليفهمه وينظر فيه فان كان قوياً رجع اليه وان كان ضعيفاً أظهر له ضعفه وأخرجه عن ظلمة الجهل ولا خلاف ان اظهار ماعلم من أمر الدين واجب عند السؤال ومن كتمه الجم بلجام من نار كما ورد في الخبر فكانه يقول لايلزمنى بيان الحق في الجدال الذى أبدعناه لسلوك سبيل الاحتيال في الافحام والمصارعة وإلافهو لازم في دين الله تعالى وشرع رسوله كما سبق فانظر في مناظرات الصحابة والسلف هل سمعت مثل ذلك وهل رأيت انكاراً على من انتقل من آية الى خبر ومن خبر الى أثر بل رأيت ذكر الله تعالى في مناظرة ابراهيم عليه السلام حيث قال ربى الذى يحيى ويميت فقال انا أحيي وأميت قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فانتقل الى دليل آخر لما رأى الاول لايدرك فهمه (الثامنة) ان يناظر مع من هو مستقل بالعلم ليستفيد منه ان كان يطلب الحق والغالب انهم يحترزون من مناظرة الفحول والاكابر خوفا من ظهور الحق على لسانهم ويرغبون فيمن دونهم طمعا في ترويج الباطل عليهم ووراء هذا شروط دقيقة ولكن في هذه الشروط الثمانية مايهديك الى من يناظر لله تعالى والى من يناظر لعلة واعلم يقينا ان

من لايناظر الشيطان وهو مستول على قلبه وقد شهد الله تعالى له بالعداوة وانه لايزال يدعوه الى هلاكه ثم يناظر في مسائل للمخطئ فيها أجر واحد وللمصيب أجران فهو ضحكة للشياطين وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غمسه في ظلمات الآفات كما نعـددها ونفصلها

﴿بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الاخلاق﴾

اعلم واستيقن ان المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والافحام والمباهاة والتشوق لاظهار الفضل هو منبع جميع الاخلاق المذمومة عند الله تعالى المحمودة عند عدوه ابليس ونسبتها الى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والرياء والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الجاه وغيرها نسبة الخمر الى الفواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل وكما ان من خير بين الشرب وبين سائر الفواحش فاختار الشرب استصغاراً له فدعاه ذلك الى ارتكاب سائر الفواحش فكذلك من غلب عليه حب الافحـام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك الى اضمار الخبائث كلها فمنها الحسد (قال) صلى الله عليه وسلم الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ولا ينفك المناظر من الحسد فانه تارة يغلب وتارة يغلب وتارة يحمد كلامه وتارة يحمد كلام غيره وما بقي في الدنيا من يعتقد فيه انه أقوى على الخصوم منه فلا بد وان يحسـده ويحب زوال النعمة عنه ويغير الاعتقادات فيه ويكون بحسده في الحال في عذاب دائم ولعذاب الآخرة أشـد وأبقى ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما خذوا العلم حيث وجدتموه ولاتقبلوا قول العلماء بعضهم في بعض فانهم يتغايرون كما يتغاير التيوس في الزريبة ومنها التكبر والترفع على الناس (قال) صلى الله عليه وسلم لايدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر (وقال) صلى الله عليه وسلم من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله (وقال) حاكيا عن الله تعالى العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيها قصمته ويتحرك بالمناظرة داعيـة الكبر والترفع على الاقران في المجالس والتقدم في الطرق حتى انهم ليتقاتلون على القرب من الصدور وربما يعبر المغرور عن التواضع بالذل ويقول لست أرفع نفسي الا لاعزاز العلم وصونه عن الذل وليس يدري ان الذل في التواضع للاغنياء والصدور من أهل الدنيا لا للاقران فيسمي التواضع المحمود عنـد الله تعالى ذلاً والتكبر الممقوت عنده عزاً تحريفاً للاسم واضلالاً عن الحق ومنها الحقد (قال) صلى الله عليه وسـلم المؤمن غير حقود ولا يخلو المناظر عن حقد على من يحرك الرأس في كلام خصمه ويرجحه عليـه ومتى يتفق

جميع المستمعين على ترجيح كلامه فلا يخلو عمن يستحسن كلام خصمه ويترك كلامه أما بتأبله أو بصريح كلامه ثم ان جرى من خصمه او من واحد منه مافيه قلة مبالاة به وبكلامه انغرس في نفسه حقد لايقطعه أبد الدهر الى آخر العمر أصلا ومنها الغيبة وقد شبهها الله تعالى بأكل الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لايخلو عن حكاية كلام خصمه في معرض التعجيز والذم والتوهين له وربما يحرف كلامه فيكون كاذباً ملبساً وغاية احتياطه ان يصون لسانه عن التحريف والزيادة والنقصان وهيهات فيحكي كلامه لامحالة على وجه يدل على عجزه وقصوره ونقصان فضله وبلادته وجهله وقد يصرح باستجهاله واستحماقه واستحماق من حرك له رأسه ومال اليه والغيبة أشد من الزنا كما ورد في الخبر ولا يمكنه الاحتراز عنها ومنها تزكية النفس قال الله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه أما تصريحا وأما تعريضا بنفي فضل غيره وتهجين كلام غيره والغالب انه يصرح ويقول لست ممن يخفى عليه أمثال هذا وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالاصول والفروع وما يجرى مجراه تارة للحاجة الى ترويج كلامه واستمالة القلوب اليه وتارة على سبيل الصلف والبذخ وهو مذموم شرعاً وعقلاً ومنها التجسس وتتبع العورات قال الله تعالى (ولا تجسسوا) وقال صلى الله عليه وسلم يامعشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لاتتبعوا عورات المسلمين فمن تتبع عورة مسلم تتبع الله تعالى عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته ولا يخلو المناظر عن طلب عثرات الاقران والخصوم ليدخره ذخيرة لنفسه ليتمكن من إفضاحه في مناظرته وتخجيله حتى انه ليتفحص عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه عساه ان يعثر على هفوة أو على قرع أو عيب يجبهه به ثم اذا تأذى به أما ان يشافهه به وأما ان يعرض به ان كان متماسكا ثم يتبجح به ويقول كيف اخجلته به وكيف أخزيته ويستحسن ذلك ويعده من لطائف التشبيه وربما لايمتنع من الافصاح بالافضاح كما يحكى عن جماعة من السفهاء يعدون من أكابر المناظرين وما أبعد هذا من سيرة أهل الدين ومنها الفرح بمساءة الناس والغم بسرورهم ومن لايحب لاخيه المسلم مايحب لنفسه فهو ناقص الايمان بعيد عن أخلاق أهل الدين وكل من غلب عليه افحام الاقران بالمناظرة يسره مايسوءهم من نقصان المال والجاه ويسوءه مايسرهم من ارتفاع القدر وانتظام الامر ويكون التباغض فيما بينهم كما بين الضرات يرى أحدهم صاحبه من بعد فترتعد فرائصه ويربد لونه كانه يرى شيطانا وأهل الدين يتباشرون بالتلاقي ويستروحون اليه ويستأنسون بالملاقاة مع الاخوان ويتفرجون به عن الهموم ويتساهمون في السراء

والضراء ويتعاونون في البؤس والرخاء قال الشافعي العلم بين أهل العلم رحم متصل فاي" خير لك في علم يدعوك الى العداوة والشحناء مع الاخوان والشركاء في العلم ويصرفك عن أخلاق المؤمنين في التواددوالتحاب الى أخلاق المنافقين في التعادي والتباغض فقد كان يجرى بين الشافعي وأحمد بن حنبل مفاوضات في علم الحديث وغيره ثم كان يقول أحمد ماصليت منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعي ومنها النفاق ولاخفاء بكونه مذموماوهم مضطرون اليه فانهم يلقون الخصوم والاقران والاتباع بوجه مسالم وقلب منازع وربما يظهرون الشوق المفرط الى لقائهم وفرائصهم مرتعدة في الحال من بغضهم ويعلم كل واحد من صاحبه انه كاذب فيما يبديه وانه مضمر خلاف مايظهره (قال) صلى الله عليه وسلم اذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالالسن وتباغضوا بالقلوب وتقاطعوا في الارحام لعنهم الله عند ذلك فاصمهم وأعمى أبصارهم رواه الحسن وقد صح ذلك ودل عليه المشاهدة والعيان ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على مدافعته بالمماراة فيه حتى ان أبغض شيء الى المناظر ان يظهر الحق على لسان خصمه ومهما ظهر شمر لجحده بما يقدر عليه من التلبس والمخادعة والمكر والحيلة ثم تصير المماراة له عادة وطبيعة حتى لايسمع كلاما الا وتنبعث داعيته للاعتراض عليه اظهارا للفضل واستحماقا للخصم فان كان محقا فقد لايكون قصده اظهار الحق بل اظهار نفسه وتنقيص غيره وقد قال صلى الله عليه وسلم من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة وقد سوى الله تعالى بين من كذبه وبين من كذب بالحق فقال (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه) ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استمالة قلوبهم والرياء هو الداء العضال كما بينا في كتاب الرياء فهذه عشرة خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى مايتفق لغير المتماسكين منهم من الخصام المؤدي الى الشتم والضرب والأخذ باللحى وسب الاستاذين والوالدين فان أولئك ليسوا معدودين في زمرة المعتبرين وأما العقلاء والاكابر منهم لاينفكون عن هذه الخصال العشرة أوعن بعضها ان سلم بعضهم عن بعضها ثم يتشعب عن هذه الخصال العشيرة عن كل واحدة عشرة أخرى من الرذائل لم نطول بذكرها وتفصيل آحادها مثل الغضب والانفة والبغضاء والطمع وحب المال والجاه ليتمكن من الغلبة والمباهاة والاشر والبطر وتعظيم الاغنياء والسلاطين والترددالبهم والاخذ من حرامهم واستحقار الناس بالفخر والخيلاء ومغايظة الاقران بالتجمل والخيول ومراكب الذهب والملابس المحظورة والخوض فيما لايعني وكثرة الكلام وخروج الخشية من القلب

واستيلاء الغفلة حتى لايدرى المصلي منهم في صلاته مايقرأ ولا يحس بالخشوع من قلبه واستغراق العمر في العلوم التى لاينفع لتعين في المناظرة مع انها لاتنفع في الآخرة حتى تحسين العبارة وتسجيع الالفاظ وحفظ النوادر واعلم ان هذه الرذائل لازمة للواعظ اذا كان قصده بالوعظ طلب القبول والجاه ونيل الثروة والعز بل لازمة للمشتغل بعلم المذهب والتفسير اذا كان قصده الدنيا وطلب القضاء والاوقاف والتقدم على الاقران وبالجملة فهي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير وجه الله تعالى فالعلم لايهمل صاحبه بل يهلكه ويشقيه أو يسعده ويقربه من الله تعالى ويدنيه فطالبه كطالب الملك لايخلو عن الملك أو الهلك ولا تسلم له سلامة الاراذل فان قلت في المناظرة فائدتان أحدهما ترغيب الناس في العلم اذ لو لاحب الرياسة لاندرست العلوم وفي سدبابها مايغير هذه الرغبة والأخرى ان فيه تشحيذ الخاطر وتقوية النفس لدرك مآخذ الشرع فنقول صدقت ولم تذكر ماذكرناه لسد باب المناظرة بل ذكرنا لها ثمانية شروط وعشرة آفات ليراعي المناظر شروطها ويحترز عن آفاتها ثم يستدر فوائدها من الرغبة في العلم وتشحيذ الخاطر فان غرضك ان تقول ينبغي ان يرخص في هذه الآفات ويحتمل جميعها لاجل الرغبة في العلم ولاجل تشحيذ الخاطر فبئس ماحكمت فان الله تعالى رغب الخلق في العلم بما وعدهم من ثواب الآخرة لابالرياسة (وقال) عليه الصلاة والسلام ان الملائكة تبسط أجنحتها لطالب العلم وتشفع العلماء يوم القيامة ومن سلك طريقاً يطلب فيه علما سلك الله به طريقا الى الجنة الى غير ذلك مما رويناه من اخبار فضيلة العلم والترغيب فيه ومتى رأيته يقول من طلب العلم وحصله تقدم على أقرانه وترفع عليهم وأخذ ادرار السلطان وسلمت له الرياسة وولاية القضاء والاوقاف فيحرص في الترغيب في العلم باكثر من حرص الانبياء والرسل وقد زجروا عن طلب العلم للدنيا وقالوا من تعلم العلم للمباهاة واستمالة وجوه الناس فالنار النار فاياك ان تكون أعظم شفقة على الشرع من واضع الشرع نعم حب الرياسة باعث طبيعي والشيطان موكل بتحريكه والترغيب به وهو مستغن عن نيابتك ومعاونتك فلا تكن نائبا للشيطان واعلم ان من تحركت رغبته بتحريك الشيطان فهو ممن (قال) فيهم صلى الله عليه وسلم ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وباقوام لاخلاق لهم ومن تحرك بتحريك الانبياء وترغيبهم في ثواب الله تعالى فيكون من ورثة الانبياء وخلفاء الرسل وأمناء الله تعالى على عباده وأما حديث تشحيذ الخاطر فقد صدقت فليشحذ الخاطر وليجتنب هذه الآفات التى ذكرناها فان كان لايقدر على ان يحترز منها فليكتف بخاطر كخاطر الصحابة والتابعين فان كان يريد الخاطر ليعلم الدين والشرع

فقد شحذت خواطر أهل الدين بالمواظبة على العلم وطول التفكر فيه وتصفية القلوب عن كدورات الاخلاق فان الشيء اذا كانت له منفعة واحدة وآفات كثيرة فلا يجوز التعرض لآفاته لتلك المنفعة الواحدة يدل عليه الخمر والميسر فقد قال تعالى (واثمهما أكبر من نفعهما) ولاشك في منفعة الخمر في تعديل المزاج وتقوية الطبع وتقوية الدماغ والميسر في تشحيذ الخاطر بل الرياضة باللعب بالشطرنج يشحذ الخاطر فلايجوز الاشتغال به والتعرض لآفاته وكذلك النظر في علم اقليدس والمجسطى ودقائق الحساب والهندسة والرياضة بها تشحذ الخاطر وتقوى النفس ونحن نمنع منها لآفة واحدة وهى انها من مقدمات علم الاوائل ولهم مذاهب فاسدة وراءها وان لم يكن في نفس علم الهندسة والحساب مذهب فاسد متعلق بالدين ولكن نخاف منه الانجرار اليه وعلى الجملة لانمنع من المناظرة لمن قدر على القيام بالشروط الثمانية والحذر من آفاته العشرة ولارخصة فيها لمن لم يقدر عليه هذا هو الحق فان اتهمت من يزجر عن هذا بان الناس أعداء ماجهلوا فلا تتهم به هذا القائل فعلى الخبير سقطت فيه والله أعلم

﴿ الباب السادس فى آداب المعلم والمتعلم ﴾

اما المتعلم فآدابه كثيرة وقد أطنب العلماء فيه وأكثروا ولكن ينظم تفاريعها ست جمل (الوظيفة الاولى) تقديم طهارة نفس القلب عن رذائل الاخلاق وخبائث الصفات اذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن الى الله تعالى وكما لاتصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الا بتطهير الظاهر من الاحداث والاخباث فكذلك لاتصح عبادة القلب بتعلم العلم الا بعد طهارته من خبائث الاخلاق ونجاسات الصفات وليست النجاسة مقصورة على الظاهر قال تعالى (انما المشركون نجس) تنبيهاً للعقول على ان طهارة البدن والثوب غير كاف في حصول الطهارة والنجاسة عبارة عما تجتنب فاذا كان القلب ملطخا بصفة يجب اجتنابها فهو نجس بل هذه أعظم فانها في الحال نجاسات وفي المآل مهلكات وقد دل على اشتراط هذه الطهارة للعلم (قوله) صلى الله عليه وسلم لاتدخل الملائكه بيتاً فيه كلب والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط آثارهم والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والكبر والعجب واخواتها كلاب ضارية نابحة ونور العلم انما يقذفه الله تعالى فيه بواسطة الملائكة قال الله تعالى (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء) فهكذا مايرسل من رحمة العلوم الى القلوب انما يتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرؤن عن المذمومات

فلا يلاحظون الا طيبا ولا يعمرون بما عندهم من خزائن رحمة الله الا طاهرا ولست أقول المراد بالبيت هو القلب وبالكلب الغضب بل هذا الظاهر كما ورد مقبول ولكنا نعبر من الظاهر الى الباطن ومن الصورة الى السر والمعنى وهذا طريق الاعتبار الذى أمر الله تعالى به فقال (فاعتبروا ياأولى الابصار) أى اذا علمت هذا الظاهر وطهرت البيت عن الكلب فاعبر من البيت الذى هو بناء الخلق الى البيت الذى هو بناء الخالق وهو القلب ومن الكلب الذى ذم لصفته لا لصورته بل لما فيه من
وهى الضراوة والسبعية واعلم ان القلب المشحون بالغضب والشره والتكالب على الدنيا والحرص على تمزيق اعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة وصاحب نور البصيرة يلاحظ المعانى ولا يقتصر على الصورة والصور في هذا العلم غالبة على المعانى والمعانى باطنة حتى قد ترى ذئبا في صورة انسان وفي عالم الآخرة تتبع الصور المعانى فيحشر كل شخص على صورة تناسب معناه الباطن فيحشر الممزق لاعراض الناس كلباً ضارياً والشره الى أموالهم ذئباً عادياً والمتكبر عليهم في صورة نمر وطالب الرياسة والاستيلاء في صورة أسد وقد وردت به الاخبار وشهدت له شواهد الرؤيا فان النائم لما بعد عن عالم المحسوسات وقرب من ذلك العالم اذ النوم أخو الموت فيرى في النوم الموصوفين بهذه الصفات على هذه الصور التى ذكرناها فان قلت كم من طالب علم ردىء الاخلاق حصل العلوم وصار اماماً فيها فكيف تكون هذه الطهارة شرطاً فأقول هيهات ماأبعدك عن العلم الحقيقى النافع في الآخرة فان أول العلم ان تعرف ان للمعاصى سموم مهلكة ومن تناول السم وزعم انه علم انه سم فقد كذب انما الذى تسمعه من المبرسمين حديث تلقفوه باسماعهم وأدوه بالسنتهم فما استضاءت قلوبهم بنور العلم أصلا قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية انما العلم نور يقذف في القلب وقال بعضهم انما العلم الخشيه اذ قال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) فاعلم مقدار علمه بمقدار خشيته ﴿الوظيفة الثانية﴾ ان يقلل علاقته من اشتغال الدنيا ويبعد عن الاهل والوطن فان العلائق شاغلة وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك كنه الحقائق ومثاله كجدول يفرق ماؤه في جداول فنشفت الارض بعضه واختطف الهواء بعضه فلم يبق منه مايجتمع ويبلغ المزرعة ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فاذا أعطيته كلك فانت من إعطائه اياك بعضه على خطر ﴿الوظيفة الثالثة﴾ ان لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على أدله بل يلقى

الى العلم زمام أمره في كل تفصيل ويذعن لنصيحته اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق فاذا أشار معلمه عليه بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فان خطأ مرشده أنفع له من صوابه اذ التجربة قد تطلع على دقائق يستبعدها طباع المبتدئين مع انه يعظم نفعها فكم من مريض محرور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة ليزيد في قوته الى حد يحتمل العلاج فيتعجب منه من لاحذق له في الطب وقد نبه الله تعالى في قصة الخضر وموسى عليهما السلام على ذلك اذ قال له (وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا) فالتزم الصبر ثم لم يقدر عليه وكان سبب الفراق بينهما فكل متعلم ينتقي لنفسه رأيا واختيارا فاحكم عليه بالاخفاق والخسران فمخالفة تدبير المعلم غاية التكبر عليه بل ينبغي ان يكون المتعلم للمعلم كارض دمثة نالت مطرا غزيرا فشربت بجميع أجزائها فقد (قال) صلى الله عليه وسلم ليس من أخلاق المؤمن الملق الافي طلب العلم ومن تكبره ان يستنكف من الاستفادة الامن المشهورين المرموقين وهو عين الحماقة لان العلم سبب النجاة ومن طلب مهربا من سبع لايفرق بين من يرشده الى المهرب أهو مشهور أو خامل فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث ظفر بها ويشكر من أرشده اليها كائنا من كان ولذلك قيل العلم حرب للمتعالى كالسيل حرب للمكان العالى فلا ينال العلم الا بالتواضع والتسليم وإلقاء السمع قال الله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أوالقى السمع وهو شهيد) وذو القلب هو الناظر بنفسه وملقى السمع هو المصغى المحضر قلبه للقبول والتقليد وينبغى ان يتشرف بخدمة معلمه وان كان أعلى منه نسباً وارفع جاها قال الشعبي صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت له بغلته ليركبها فاخذ ابن عباس بركابه فقال زيد خل ياابن عم رسول الله فقال ابن عباس هكذا أمرنا ان نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد يده وقال هكذا أمرنا ان نفعل باهل بيت نبينا محمد عليه الصلاة والسلام (الوظيفة الرابعة) ان العمر اذا كان لايتسع لجميع العلوم فالحزم ان يأخذ من كل شئ أحسنه ويقنع منه بشمة ويصرف زمام قوته الى استكمال العلم الذى هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمى المعاملة والمكاشفة وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ولست أعنى به الاعتقاد الذى تلقنه العامى وراثة وتلقفا ولا طريق تحرير المجادلات وتحصين ذلك عن مراوغات الخصوم وتلبيسات المبتدعة كما هو غاية المتكلم بل ذلك نوع يقين وهو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر باطنه بالمجاهدة عن الخبائث ينتهى الى رتبة ايمان أبى بكر الذى لو وزن بايمان العالمين لرجح والى السر الذى به فضل أبو بكر سائر الصحابة رضي الله عنهم والى العلم الذى مات تسعة

اعشاره بموت عمر رضي الله عنه كما قال ابن مسعود ولم يكن منتهى عقيدة العامى ولا أدلة مجادلة المتكلمين مختصا بابى بكر وعمر رضى الله عنهما والعجب ممن يسمع مثل هذه الاحوال من صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ثم اذا سمع مثله وعلى وفقه قال ذلك من تراهات الصوفية والكلمات الفارغة فينبغي ان يبحث عن ذلك السر وعن ذلك العلم الخاص ويحرص عليه ﴿ الوظيفة الخامسة ﴾ ان يعرف السبب الذى به يدرك شرف العلوم وان ذلك يراد به إما شرف الثمرة واما ثقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فان ثمرة أحدهما الحياة الابدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف وأهم ومثل علم الحساب وعلم النحو فان الحساب أشرف لوثاقة براهينه وأدلته واذا اضيف الحساب الى الطب فالطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار براهينه وقوة أدلته واذا قوبل بينهما كان ملاحظة الثمرة أولى لان الدليل لا يراد لعينه بل لاجل الثمرة والفائدة فلذلك كان الطب أهم وأشرف وان كان أكثره بالتخمين وبهذا يتبين ان أشرف العلوم العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل الى هذه العلوم فاياك ان ترغب الا فيه وان تحرص الا عليه ﴿الوظيفة السادسة﴾ ان يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه بنعوت الكمال وفي المآل التقرب الى حضرة الجلال والترقى الى جوار الملأ الاعلى من الملائكة والمقربين ولا يقصد به الرياسة والمباهاة والتقدم على الاقران كما سبق واذا كان هذا مقصده طلب لامحالة ماهو الاقرب الى مقصوده وهو علم الآخرة ومع هذا فلا ينبغي ان ينظر بعين الحقارة الى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى والاقضية بل ولا الى علم النحو واللغة المتعلقين بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والمتممات ولا يفهمن من غلونا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم حاشا لله ان يكون كذلك فالمتكفلون بعلوم الدين كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة كلهم مجاهدون في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء والعون قال الله تعالى خبراً عن موسى عليه السلام (فارسله معى ردأ يصدقنى) ومنهم الذى يسقيهم الماء ومنهم الذى يتعهد الدواب ويحفظها على اختلاف مراتبهم لا ينفك واحد منهم من الأجر اذا قصد إعلاء كلمة الله دون حيازة الغنيمة فكذلك العلماء قال الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وقال تعالى (هم درجات عند الله) فالفضيلة نسبية واستحقارنا الصيارفة بالاضافة الى الملوك لا يدل على حقارتهم اذا قيسوا بالكناسين والدباغين ولا تظن ان من نزل عن المرتبة العالية فهو ساقط القدر بل الرتبة العليا للانبياء ثم للاولياء ثم للعلماء الراسخين

ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) ومن قصد الله تعالى بالعلم أى علم كان نفعه به ورفعه

القول في وظائف العلم وآدابه

اعلم ان للانسان في علمه أربع أحوال كحاله في اقتناء الاموال اذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال وحال انفاق على نفسه فيكون به منتفعا وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله فكذلك العلم يقتنى كالمال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يغني عن السؤال وحال استبصار وهو حال التفكر في المحصل والتمتع به وحال تبصير وهو أشرف الاحوال فمن علم وعمل وعلم فهو كالشمس تضئ لغيرها وهي مضيئة وكالمسك الذى يطيب وهو طيب والذى يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذى يفيد غيره وهو خال عن العلم والمسن الذى يشحذ غيره وهو لا يقطع وكالابرة التى تكسو غيرها وهي عارية وكذبالة المصباح تضئ لغيرها وهي تحترق ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد خطراً عظيما فليحفظ آدابه ووظائفه وهي سبع (الوظيفة الاولى) الشفقة على المتعلمين وان يجريهم مجرى البنين (قال) النبي صلى الله عليه وسلم انما أنا لكم مثل الوالد لولده فان قصده انقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الابوين ولدهما من نار الدنيا ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فان الوالد سبب الوجود الخاص والحياة الفانية ولولا المعلم لساق ما حصل من جهة الاب الى الهلاك الدائم وانما المعلم هو المفيد للحياة الاخروية الدائمة أعنى معلم علوم الآخرة وعلوم مصالح الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله تعالى منه فكما ان حق ابناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد فحق تلامذة الرجل الواحد التحابب ولا يكون الا كذلك ان كان مقصودهم الآخرة ولا يكون الا التحاسد والتباغض ان كان مقصودهم الدنيا فان العلماء وابناء الآخرة مسافرون الى الله تعالى وسالكون اليه في الطريق والدنيا هي الطريق وسنوها وشهورها منازل الطريق والترافق في الطريق بين المسافرين الى الامصار سبب التوادد والتحابب فكيف والسفر الى الفردوس الاعلى ولا ضيق في سعادات الآخرة ولذلك لا يكون بين ابناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ولذلك لا تنفك عن ضيق التزاحم والعادلون الى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) داخلون في مقتضى قوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين) (الوظيفة الثانية) ان يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه فلا يطلب على افاضة العلم أجراً

ولا يقصد جزاء ولا شكورا بل يعلم للتقرب الى الله تعالى كما قال الله تعالى (قل لاأسئلكم عليه أجراً) ولايمن أيضاً على تلامذته وان كانت المنة لازمة له عليهم لكن المتعلم يتقلد المنة ويلتزم الحق أكثر مما يلتزمه لابويه والمعلم لايمن بل يشكر الله تعالى اذ هدف قلوبهم لتعليمه ولزراعة العلم فيه حتى يتوصل بواسطتهم الى ثواب الآخرة فاما اذا اعتاض عن التعليم خدمة أوموالاة أودنيا فقد احبط عمله فان المال ومافي الدنيا خادم للبدن اذ لاجله خلق والبدن خادم القلب والقلب يراد للعلم اذبه شرفه فمن طلب بالعلم المال فقد طلب الاخس بالاشرف وكان كمن مسح أسفل نعليه بمحاسنه لينظفه وما اشد انتكاس من جعل الخادم مخدوما والمخدوم خادما هذا ينبغى ان يكون مقصد المعلم واذا رد الامر الى التحقيق فالمنة للاستاذ على التلامذة واذا فسدت النيات وطلب بالعلم الجاه انعكس الأمر واصبح التلميذ يمن على استاذه بتكثير سواده والجلوس بين يديه لاقامة جاهه فلا جرم يتحكم عليه بطلب الجراية ويطوقه خدمة السلطان لاطلاق جرايته ويكلفه القيام بجميع حقوقه والتصدى لدفع الآفات عنه بنصرة أوليائه ومعاداة أعدائه ويطمع في ان يستسخره في جميع أغراضه ويتخذه حمارا له في حاجاته والمعلم المسكين يتكلف جميع ذلك ويلتزمه خيفة من ان يثلم جاهه باعراضه ويتفرق اتباعه وكل ذلك عكس للواجب بل اليد العليا للمعلم والخدمة واجبة له على المتعلم وان كان حقه ان لايقصد ذلك بتعليمه (الوظيفة الثالثة) ان لايدخر من نصح المتعلم شيأ وذلك بان يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من الجلى ثم ينبهه على ان المطلب من العلم القرب من الله تعالى فلا ينبغى ان يقصد سواه فان علم انه يقصد بتعلمه الدنيا نظر فان كان يتعلم العلم النافع المنذر المخوف المستفاد من التفسير والاخبار فلا يمنعه منه فانه اما ان يصلحه ذلك العلم ويرده الى الله تعالى أو يشمر للوعظ والانذار طلبا للجاه والقبول فيصلح به جمع من الناس وان هلك في نفسه وكان حب القبول والجاه كالحب في الفخ يقتنص به الطير وقد فعل الله تعالى ذلك بعباده اذ خلق الشهوة ليتسارع الخلق بها الى أسباب النسل وخلق أيضا حب الرياسة ليكون سببا لاحياء العلوم فلولا حب الرياسة لاندرست العلوم ولله تعالى تحت كل شر سر وفي طيه خير يتصل به يغفل عنه ولاجله قدر الخير والشر جميعا فاما ان كان يطلب الخلاف والجدال أو مجرد التفريعات الغريبة فلا يزداد المتجرد لها مع الاعراض عن غيرها الاقسوة في القلب وغفلة عن الله تعالى وجراءة على الدنيا وتماديا في الحرص الا من تداركه الله برحمته ومزج به علما آخر من العلوم النافعة المنذرة ولابرهان على هذا كالتجربة والمشاهدة

فان قلت على الجملة يحصل به احياء علم لابد من احيائه فقد صدقت فهذا خير ولكن اذا كان هذا الاحياء حاصلاً بغيره فما يفسده هذا من تحريك رغبة الدنيا في الجهال أكثر مما يصلحه من الفتاوى التى لايجوز الثقة به فيها اذ لايجوز قبول الفتوى الا من عدل ورع ومن لايخاف الله تعالى لايؤمن غوائله ولايوثق بقوله ففساد مثل هذا العالم أكثر من إصلاحه ولذلك روى سفيان الثورى حزينا فقيل له مالك فقال صرنا متجراً لاهل الدنيا يلزمنا أحدهم حتى اذا تعلم جعل قاضياً أوعاملاً أوقهرماناً (الوظيفة الرابعة) ان يزجره عن سوء الاخلاق بالتعريض لا بصريح النهى وبطريق اللطف والنصح لابطريق التوبيخ فان التصريح يهتك حجاب الهيبة وربما يحرص الطبع على مانهى عنه صريحا (قال) صلى الله عليه وسلم لومنع الناس من فت البعر لفتوه وقالوا مانهينا عنه الا وفيه شئ وينبهك على هذا ماحكى لك من قصة آدم وحواء ونهيهما عن أكل الشجرة واذا نهى بالتعريض تشوقت النفوس الزكية الى التفطن للمعنى والمراد وتشوقت الى العمل به ليعلم ان ذلك ليس يعزب عن فطنته (الوظيفة الخامسة) ان المتكفل ببعض العلوم لاينبغى ان يقبح في عين المتعلم ماعداه فالعالم بالفقه يزجر عن علم الحديث ويقول محض النقل والتقليد وليس فيه تحقيق وكالمتكلم يزجر عن الفقه ويقول ذلك ظن وتخمين لابرهان فيه وهذا كلام في حيض النسوان فاين هو من الكلام في صفات الرحمن وهذه أخلاق مذمومة بل ينبغى ان يوسع على المتعلمين طرق العلوم لكن ينبههم على الاهم فالاهم والاشرف فالاشرف وعلى رعاية التدريج والترتيب فيه (الوظيفة السادسة) ان لايلقى الى المتعلم مالا يحتمله فهمه فينفره أويخبط عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد المرسلين حيث (قال) إنا معاشر الانبياء امرنا ان ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم (وقال) عليه الصلاة والسلام ماأحد يحدث الناس بحديث لايبلغه فهمهم الا كان فتنة على بعضهم وقال على رضى الله عنه وأشار الى صدره ان هاهنا علوماً جمة لووجدت لها حملة ولقد صدق فقلوب الاحرار قبور الاسرار بل لاينبغى ان يبث كل مايعلمه الى من يفهمه أيضاً اذا كان لاينتفع به فضلا عمن يفهمه قال عيسى عليه السلام لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير والحكمة خير من الجوهر فمن كرهها فهو شر من الخنزير وسئل بعض الحكماء عن شئ فلم يجب فقال السائل أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقول) من كتم علماً نافعاً جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار فقال اترك اللجام واذهب فان جاء من يفهمه فكتمته فليلجمنى وقال تعالى (ولاتؤتوا السفهاء أموالكم) تنبيها على ان حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى وليس الظلم في

إعطاء غير المستحق باقل من الظلم في منع المستحق

فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(الوظيفة السابعة) ان يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله بفعله لان العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالابصار وأرباب الابصار أكثر من أرباب البصائر والارشاد مع مخالفة العمل القول بل من زجر الناس عن تناول طعام وزعم ان فيه سماً وهو يتناوله سخروا منه ولم يصدقوه وازداد حرصهم عليه وقالوا انه يصطفيه ويبخل به علينا ولنفاسته يزجرنا عنه وقد قيل مثل المعلم المرشد من المسترشد مثل النقش من الطين والعود من الظل

وكيف ينتقش الطين بما لا نقش منه فيه

وكيف استواء الظل والعود أعوج

وقال تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) وقال علي رضى الله عنه قصم ظهرى رجلان عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه فهذه وظائف المعلم معما ذكرناه من علامات علماء الآخرة

الباب السابع فيما يحل للعلماء أخذه من أموال السلاطين وغيرهم وفيه فصول

الفصل الاول في فضل الورع قال الله تعالى (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) فامر باكل الحلال وقدمه على العمل الصالح (وقال) رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن مسعود رضى الله عنه طلب الحلال فريضة على كل مسلم كما قال طلب العلم فريضة كل مسلم وقال بعض العلماء أراد بهذا أيضاً طلب علم الحلال فجعل الحديثين حديثاً واحداً وعلى كل حال فطلب الحلال من أهم فرائض الدين فالعلم والعبادة مع الحرام كالبناء على السرجين وقد (قال) صلى الله عليه وسلم من أكل الحلال أربعين يوما نور الله تعالى قلبه واجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وفي رواية زهده الله تعالى في الدنيا وروى أن سعداً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يسأل الله تعالى له ان يجعله مجاب الدعوة (فقال) أطب مطعمك تستجب دعوتك (وقال) صلى الله عليه وسلم رب أشعث أغبر مشرد في الاسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يرفع يديه فيقول يارب يارب فانى يستجاب لذلك وفي حديث ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه (قال) ان لله تعالى ملكا على بيت المقدس ينادى كل يوم من أكل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل فقيل الصرف النافلة والعدل الفريضة (وقال) صلى الله عليه وسلم من اشترى ثوبا بعشرة

دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته مادام عليه منه شئ (وقال) صلى الله عليه وسلم كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به (وقال) صلى الله عليه وسلم من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله تعالى من أين يدخله النار (وقال) صلى الله عليه وسلم العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال وقد روينا في كتاب الكسب والتجارة وكتاب الحلال والحرام اخباراً وآثاراً كثيرة تدل على تشديد الأمر في طلب الحلال ولاجل ذلك انتهى الامر بالصديق رضى الله عنه الى ان ادخل أصبعه في فيه وتقيأ حتى كاد تخرج روحه لما سمع انه كان فيما شربه من اللبن شبهة وهو ان غلامه كان قد تكهن لقوم فاعطوه ذلك ثم قال اللهم انى اعتذر اليك مما حملت العروق وخالط الامعاء وكذلك غلط عمر رضى الله عنه فشرب من ابل الصدقة فادخل أصبعه وتقيأ ولم يتركه في جوفه مع انه كان معذورا بالغلط وقالت عائشة رضى الله عنها انكم لتغفلون عن أفضل العبادات وهو الورع فاذا أهم مهمات العالم الورع والنظر في مطعمه وملبسه من أين هو فان لم يدبر له وتساهل فيه لم ينتفع بعلمه ولم ينتفع غيره به فاصل الدين الورع

﴿الفصل الثانى في درجات الورع﴾

وهى أربع (الدرجة الاولى) ورع العدول عن المعاصى وهو الذى يفتى المفتى بتحريمه كالرياء والمعاملات الفاسدة وخراج السلطان ومال الاوقاف على خلاف شرط الواقف وهو الذى يلزم المعصية والفسق بسببه (الدرجة الثانية) ورع الصالحين وهو الحذر من الشبهات (قال) صلى الله عليه وسلم دع مايريبك الى مالا يريبك وهو الذى يستحب اجتنابه ولا يجب في فتوى المفتى والفقهاء (الدرجة الثالثة) ورع المتقين وهو ترك مالا بأس به مخافة مابه بأس (قال) صلى الله عليه وسلم لايبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع مالا بأس به مخافة مابه بأس وقال عمر رضى الله عنه كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة ان نقع في الحرام فمن هذا القبيل الاحتراز عما يسامح به خيفة من الانجرار الى مالا يسامح به كما حكي عن بعضهم انه كان يعطى ماعليه بزيادة حبة ويأخذ ماله بنقصان حبة ويجعل الحبة حاجزة بينه وبين النار وعن بعض الصحابة قال كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة الوقوع في الحرام وعندى ان الحلال الذى يخشى منه الوقوع في الحرام ينحصر في ثلاثة أقسام اليها يرجع تسعة أعشار الحلال وسبعون باباً من الحلال كما نقل (القسم الاول) مايفتى به الفقيه بأباحته لقلته ولتسامح الناس به وذلك مما ينبغي ان يتوقى وان لم يكن به بأس مخافة مابه بأس اذ يجر ذلك قليلا

قليلا الى الاسترسال والاصل في هذا النهى ماروى ان الحسن رضى الله عنه أخذ تمرة من الصدقة ووضعها في فيه (فقال) صلى الله عليه وسلم كخ كخ القها ولم يسمح له بذلك مع كونه نزرا قليلا ومع كون المتناول صبيا ولكن أراد ان يكون نشوه على درجة التقوى فكذلك اقتدى به عمر رضى الله عنه اذ باعت امرأته طيبا للمسلمين فوزنت ومسحت يدها بخمارها فشم عمر رضى الله عنه رائحة المسك من خمارها فقال ماهذا فاخبرته فقال طيب المسلمين تأخذينه فاخذ خمارها وأخذ جرة من ماء وكان يصب على الخمار ويدلكه بالتراب ويشمه فلايزال يفعل ذلك حتى لم يبق له رائحة فكانت بعد ذلك اذا وزنت طيباً أدخلت أصبعها في فيها ثم مسحت في التراب وتابعه على ذلك عمر بن عبد العزيز رحمه الله فحمل اليه وهو في المسجد طيب للمسلمين فاخذ بانفه وقال هل ينتفع الا برائحته وسئل أحمد بن حنبل عن رجل قاعد في المسجد فحملت مجمرة لبعض السلاطين وبخر بالعود فقال ينبغي ان يخرج من المسجد وسئل عن ورقة من الاحاديث يجدها فيكتبها قبل الاستئذان ثم يردها فنهى عنـــه وحضر بعضهم وفاة رجل فلما توفي اطفأ السراج وقال حدث للورثة حق وقال على بن معبد كنت ساكنا في بيت بكراء فكتبت كتابا فاردت ان أخذ من تراب الحائط لاتربه به وأجففه ثم قلت ليس الحائط لى ثم قالت لى نفسى وما قدر تراب من حائط فاخذت التراب فلما نمت اذا أنا بشخص واقف يقول سيعلم غداً الذين يقولون وما قدر تراب من حائط معناه أنه يرى كيف تحط منزلته عن مقامات المتقين واحترز بعضهم عن ان يحكم شسع نعله في مشعلة سلطان وكره بعضهم سراجا أخــذه غلامه من نار من يكره ماله فاطفأه (القسم الثانى) من الحلال الذى يقتضى التقوى تركه وهو التوسع في التنعم وأكل الشهوة وتناول اللذات من المباحات والاحتراز من الزينة والتجمل في المسكن والملبس والاثاث فان جميع ذلك وان كان مباحا لا بأس به ولكن يخاف منه مابه بأس أما ملاذ الاطعمة فتحرك دواعى الشهوة والشهوة اذا هاجت ربما لم يقتصر الفكر والنظر على المباحاة فلا يقدر على حفظ الفكر والنظر وان قدر على حفظ الفرج والتجمل اذا كثر لم يمكنه الصبر عنه ولا يمكنه استدامته الا بالمال الكثير من الضياع والاســباب ولا يمكن حفظ ذلك الا بجاه وحشمة ولا يتم ذلك الا بمعاونة السلاطين ولا تحصل معاونتهم الا بخدمتهم ومراعاتهم ومداهنتهم ومرآتهم ويجر ذلك الى الرياء والتظاهر بالظلمة ثم الى المنافسة مع الشركاء والمزاحمين ويتداعى الى الفساد والعداوة والبغضاء وسائر أنواع الخطايا ولذلك كان حب الدنيا رأس كل خطيئة (قال) صلى الله عليه

وسلم شرار أمتى قوم يأكلون ألوان الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال السبتية وهى من النعال الحسنة فقال أما انا فلا استعملها ولكن ان كان للطين فارجو وأما من أراد الزينة فلا ولما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة كانت له زوجة جميلة فطلقها خيفة ان تشفع اليه فلا يقدر على مخالفتها فلما قوى في الخلافة متنه وعلم انه يقدر على نفسه في مخالفتها طلبها ليجدد نكاحها فكانت قدماتت وسئل أحمد عن تجصيص الحائط فقال أما تجصيص الارض فيمنع التراب وأما تجصيص الحائط فزينة وانكر تجصيص المسجد وتزيينه واستدل بما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم سئل ان يكحل المسجد (فقال) لا عريش كعريش موسى وانما هو شئ مثل الكحل يطلى به فلم يرخص فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا من رق ثوبه رق دينه وكل ذلك مباح ولكنه يتداعى الى الحرام على قرب ومن هذا الجنس الاحتراز من الخوض في حديث الناس خوفاً من الانجرار الى الغيبة والنميمة ولذلك وضع الصديق رضى الله عنه حجراً في فيه (القسم الثالث) مالا تحريم فيه ولكن يتطرق الى بعض أسبابه تحريم فكان بشر الحافي لايشرب الماء من الانهار التى حفرها الامراء والسلاطين اذ النهر سبب لجريان الماء ووصوله اليه وان كان الماء مباحا وكان بعضهم في طريق مكة لايشرب الماء من مصانع السلاطين وزاد عليه بعضهم فلم يتناول عنب كرم سقى بهذا الماء وزاد ذوالنون المصرى وكان محبوسا بالظلم جائعاً اياما فبعثت له امرأة طعاماً حلالاً من كسبها بالغزل فلم يأكل منه فعاتبته وقالت علمت ان ذلك كان من حلال فما منعك من اكله فقال جاءنى على طبق ظالم أى على يد السجان معناه القوة التى ساقت الى الطعام حصلت من حرام وهذا لا يجرى في يد الفاسق غير الظالم لان القوة لا تحصل بالزنا والقتل وغير ذلك انما تحصل بأكل الحرام فتختص بالظالم والسارق وشارب الخمر وعلى الجملة آكل الحرام وكره احمد كسب الخياط الذى يخيط في المسجد وسئل عن كسب المغازلى الذى يجلس في قبة المقابر في وقت يخاف من المطر فقال المقابر انما هى من أمر الآخرة وكره ذلك فهذه اقسام الدرجة الثالثة وهى ورع المتقين (الدرجة الرابعة) ورع الصديقين وهو ان يحترز عن جميع ماهو منفك عن الآفات التى ذكرناها اذا لم يحضره نية في تناولها لله تعالى بل يجتنب ما ليس لله تعالى خالصا وهؤلاء هم الموحدون المخلصون لايتحركون الا لله ولا يسكنون الا لله ولا يتكلمون الا لله ولا يسكتون الا لله ولا يأكلون الا للتقوى على عبادة الله تعالى ولا يمشون ولا ينامون الا لله فان مشوا ففي حاجة مسلم أو سعي الى خير وان ناموا فلا عادة قوة العبادة ودفع الملال وكذلك في

كل امورهم القائمون بموجب قوله تعالى (قل الله ثم ذرهم في خوضهم) فكل ماليس لله فهو حرام عندهم وقد روى عن يحيى انه شرب الدواء فقالت له امرأته لو مشيت خطوات لتسهيل الاسهال فقال هذه مشية لاأعرف لها وجها وانا احاسب نفسي منذ ثلاثين سنة وكأنه لم يحضره نية خالصة في الدين فلم يجوز الاقدام عليها وحكى عن ابن سيرين انه دعي الى جنازة الحسن البصري رحمة الله عليه ليصلي عليها فقال ليس يحضرني الآن نية فهذا أقصى درجات الورع وورع العدول ادناها وبينهما درجات لا تحصى في الاحتياط فكل ما كان العبد اشد احتياطاً وتشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازا على الصراط وابعد من ان ترجح كفة سيأته على كفة حسناته وتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات كما يتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام فاذا علمت حقيقة الامر فاليك الخيار فان شئت فاستكثر من الاحتياط وان شئت فترخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك تترخص ولم نورد ما اوردناه من أقسام ورع المتقين والصديقين بل ورع الصالحين طمعا في أن تقوم به فاني يسمح آخر الزمان بامثال أولئك بل لا يسمح الا بامثالنا ونحن نعجز وان أتعبنا أنفسنا على القيام بورع العدول وهو ادنى الدرجات التي ليس بعدها الا الفسق والعدوان ورد الشهادة والفتوى والرواية في حق كل من لا يقوم به فاجتهد ان تقوم بهذه الدرجة فاقل درجات العالم ان يكون عــدلا لتقبل روايته وفتواه والا لم يجز الثقة بقوله ولم يسقط التكليف من المقلد باستفتائه اذ لا يجوز له الاعتماد على فتواه كما لا يجوز الاعتماد على شهادته وروايته فلنذكر ماتبقى معه العدالة في تناول أموال السلاطين فان الحاجة ماسة اليه

الفصل الثالث فيما يأخذه العلماء من أموال السلاطين

اعلم ان مال السلطان ثلاثة أقسام قسم يعلم حله وقسم يعلم تحريمه وقسم هو ملتبس يجب البحث عنه (القسم الاول) مايعلم حله وهو أنواع النوع الاول المال المأخوذ من الكفار على سبيل القهر والغلبة والفيء الحاصل منهم من غير قتال أومال المصالحة المأخوذ بتراضيهم أو الجزية المضروبة عليهم على شرط الشرع وقدره فكل ذلك اذا روعي الشرط فيه كان بعضه مرصداً للمصالح فيحل لمن يرتبط به شيء من مصالح الاسلام ان يأخذ منه النوع الثاني الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والمواريث التي لا مستحق لها من العصبات وأصحاب الفرائض فهذا أيضا مرصد للمصالح فما يكتب عليه لاهل العلم من أراد وصــلة يحل أخــذه على وفق المصلحة النوع الثالث الاوقاف الموسعة على الخيرات أو المقيــدة بشروط معينة اذا كتب عليــه مرسوم ولم يكن على خلاف شرط الواقف كان لاخذه

وجه لامحالة النوع الرابع مايكتب على ضيعة أحياها السلطان أو اشتراها بالتراضي وادى ثمنه فهو مباح فان كان الثمن قد أدى من الحرام أو أدى أجر إجراء الاحياء من الحرام فلا يخلو عن شبهة ولكنه لايحرم تحريما قادحا في العدالة فهذه أنواع الحلال (القسم الثاني) مايقابل هذا وهو الذي يعلم تحريمه وذلك مايكتب على الخراج الموظف على المسلمين في جميع بلاد الاسلام فانه حرام الا العراق فان مذهب الشافعي انه وقف على مصالح المسلمين فمن أخذ من ذلك المال قدر كفايته من العلماء لم يكن عليه حرج وهذه رخصة ترخصنا بها فاخذنا من مال العراق قدراً نازلا عن الكفاية لا للمبالغة في القناعة فنرجو ان يكون ذلك في محل العفو وان يكون ذلك أطيب طعمة يكتسبه أهل العلم في هذا الزمان المشوش الطافح بانواع الحرام واذا عرفت ان مايكتب على الخراج من الادارات حرام فما يكتب على أموال المصادرة والمواقعة حرام وكذلك مايأخذه الولاة من العمال على سبيل الرشوة فهو سحت لايجوز ان يؤخذ وبالجملة كل ماأخذوه ظلما فلا يخفى تحريمه فاذاً أنواع الحرام أيضاً ثلاثة الخراج والمصادرة والرشوة (والقسم الثالث) ماهو ملتبس وهو على أربع درجات الاولى مايكتب على عامل من العمال فيعطيه نقدا ولا يكتب به الخط على جهة الدخل فلا يحل حتى يعرف سبب تحريمه أو تحليله فان كان عاملا على الخراج وجمع أموال القسمة فهو حرام قطعا وان كان عاملا على الدهقنة في أملاك السلطان وللسلطان أملاك موروثة ومشتراة ومحياة يعلم حلها فهو حلال وان كان عاملا عليهما جميعا ويعلم اجتماع الحلال والحرام في يده فلا يخفى ان تركه من الورع المهم ولكن ان كان الاكثر حلالا فلا يقضى بتحريمه نظرا الى الاكثر وان كان الاكثر حرام فيتعين الاجتناب لان الحكم للاكثر الدرجة الثانية ان يكتب على الخزانة فان علم من حال السلطان انه لامدخل له من الحلال فهو حرام وان كان له دهقنة وتجارة أو في يده أموال المصالح فينبغي ان يحكم فيه ايضا بالاغلب الاكثر الدرجة الثالثة ان يكتب على بياع يعامل السلطان فان كان لايعامل غير السلطان فهو كعامل الخراج وان كان مع ذلك يعامل الدهاقين والتجار فلا يحرم تناول ماله لانه ليس بده يد الظالم في الظاهر واكثر أموال مثل هذا يكون مكتسباً بالتراضي وقد كتب وكيل ابن المبارك اليه وسأله عن معاملة من يعامل السلطان فقال ان كان يعامل غير السلطان فعامله والا فلا تعامله الدرجة الرابعة ما يعطيه البياع من ماله الخاص فرضا على السلطان فحكمه حكم ماله لكن يتطرق اليه شبهة تحريم العوض فان ما يقضى عوضه من مال حرام وان كان مشترى في الذمة فغير خال عن الشبهة وفيه تفصيل

طويل ذكرناه في كتاب الحلال والحرام والشبهات من كتاب الاحياء وكذلك في اموال السلاطين تفصيل اطول من هذا ذكرناه ثمة واقتصرنا الآن على هذا التنبيه

﴿ الفصل الرابع في وجوب رد الحلال على السلاطين الظالمة ولزوم التنزه عن ذلك ﴾

اعلم انه قد نقل عن بعض أئمة السلف أخذ جوائز السلطان ولا يشك انهم كانوا يأخذون مايعلمون انه حلال وقد كان الحلال كثيرا في ايدي الولاة في اول العصر وذلك من أموال الكفار في ابتداء فتح البلاد اما في هذا الزمان فلا ينبغي ان يؤخذ منهم ما يعلم حله أيضا لان سلاطين هذه الاعصار لاتسمح نفوسهم ببذل شيء ولو من حلال الى العلماء الا طمعاً في استخدامهم والتكثر بهم والاستعانة بهم على اغراضهم والتجمل بغشيان مجالسهم وتكليفهم المواظبة على الخدمة ولزوم العتبة في كل محفل ومجمع حتى انهم ليزينون مجالس على اسم ختم القرآن وغرضهم استخدام العلماء واستحضارهم تجملا بكثرتهم واستتباعهم فلو لم يذل الآخذ من مالهم نفسه بالسؤال اولا وبالتردد في الخدمة ثانيا وبالثناء والدعاء ثالثا وبالمساعدة لهم على اغراضهم عند الاستعانة رابعاً وبتكثير جمعهم في مواكبهم ومجالسهم خامساً وباظهار الحب والموالاة والمناصرة لهم على اعدائهم سادساً وبالستر على ظلمهم ومقابحهم ومساوى اعمالهم سابعا لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو كان في الفضل بدرجة الشافعي مثلا فاذاً لايجوز ان يؤخذ منهم في هذا الزمان مايعلم انه حلال أيضاً لافضائه الى هذه المعاني فكيف مايعلم انه حرامٌ أو يشك فيه فادنى مايلزم من أخذ أموالهم هذه المعاصى مع الذل لعمالهم وكثرة الحاجة في التردد الى أبوابهم فلا يسلم معه دين من له شفقة على دينه وقد ذكرنا ان جميع هذه المعاصى من الثناء والدعاء والدخول عليهم وادخال السرور على قلوبهم حرامٌ فاى فائدة في مال يجر الى هذه المحذورات والمحظورات فاقطع طمعك بالكلية عن مالهم حرامهم وحلالهم ليسلم لك دينك والسلام

﴿ مسئلة نختم بها هذا الباب ﴾ وهذا الكتاب وننبه فيها على دقائق من الورع راعاها السلف في حقوق السلاطين وهو ان يبعث اليك السلطان مالاً لتفرقه على المساكين فهل الاولى رده أو قبوله وتفرقته فاقول ان كان من وجه حرام وكان يعلم مالكه فلا وجه لاخذه بل يؤمر برده الى مالكه وان كان من جملة أموال لايعرف مالكها فيفتى فيها بانه ينبغي أن يتصدق بها على المساكين فلهان يأخذه ويفرقه على المساكين فذلك أولى من تركه في يده حتى لايستعين به على ظلمه ويصرفه الى فساده وفسقه ولكن بشرط الأمن من ثلاث غوائل الغائلة الاولى ان يظن السلطان بسبب أخذك ان ماله حلال ولولاه لكنت لاتمد اليه اليد ولا تدخله في ضمانك فان كان كذلك فلا تأخذه فان مايحصل له من الجرأة على كسب الحرام

لايفى بالخير في مباشرتك للتفرقة بنفسك الثانية ان ينظر اليك غيرك من جهال العلماء فيعتقدون بك في الاخذ ويستدلون على جواز الاخذ ثم لايفرقون فقد تمسك جماعة بأخذ الشافعي مال الخلفاء وذهلوا عن تفرقته وعن أخذه على نية التفرقة وروى ان وهب بن منبه وطاوساً دخلا على محمد بن يوسف أخي الحجاج وكان له عاملاً وكان في غداة باردة فقال لغلامه هلم ذلك الطيلسان والقه على طاوس وكان قد قعد على الكرسي فالقاه عليه فلم يزل يحرك كتفيه حتى القى الطيلسان فغضب محمد بن يوسف فقال وهب لم اغضبته كنت تقدر على ان تتصدق به قال نعم لولا ان يقال من بعدى اخذه طاوس ثم لايصنع به مااصنع اذا لفعلت ذلك الثالثة ان يتحرك قلبك الى حبه بتخصيصه اياك وايثاره لك بما انفذه اليك فان كان كذلك فلا تقبل فان حب الظالم هو السم القاتل والداء الدفين فانك اذا احببته فلا بد وان تداهنه وان تحرص على لقائه وتكره عزله وكل ذلك حرام قالت عائشة رضي الله عنها جلبت القلوب على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها (وقال) عليه الصلاة والسلام اللهم لاتجعل لفاجر على يداً فيحبه قلبي فتبين ان حب القلب يقع ضرورة وان الحب للفاجر محظور وارسل بعض الامراء الى مالك بن دينار عشرة آلاف درهم فاخرجها كلها فقال له محمد بن واسع ماذا صنعت بما اعطاك هذا المخلوق فقال سل أصحابي فقالوا أخرجه كله فقال أنشدك الله أقلبك أشد حباً له الآن أم قبل ان يرسل قال الآن قال انما كنت أخاف هذا ولا شك في ان حبه يقتضي الرضى ببقائه واتساع ولايته وكراهة عزله وموته وكل ذلك رضى بالظلم ومن رضى بالظلم فهو شريك فيه قال الله تعالى ﴿ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ أي لاترضوا باعمالهم وان كان يبقى قلبه على ما كان عليه من البغض بسبب ظلمه فلا بأس باخذه فقد قيل لبعض عباد البصرة وكان يفرق أموالاً للسلطان تنفذ اليه الاتخاف ان تحبهم فقال لو أخذ رجل بيدى فادخلني الجنة ثم عصى ربه ما أحبه قلبي لان الذى سخره للاخذ بيدى هو الذى أبغضه لاجله شكراً له على تسخيره إياه هذه خاتمة فاتحة العلوم فلنقتصر عليها والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيراً

